آمنيزيا

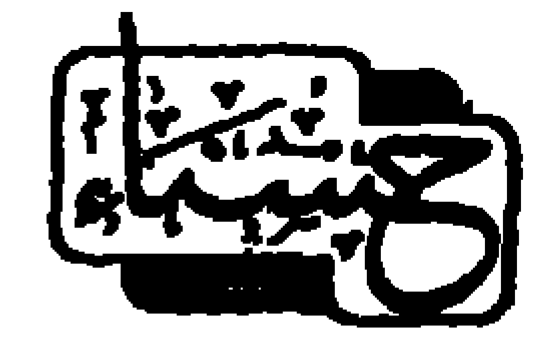
Amnesia

رواية

محمد دافنشي

آمنیزیا

ديوى : 813
دافنشى ، محمد
أمنيزيا / محمد دافنشى
الإسكندرية : حسناء للنشر
ط1 / 2015
148 ص ، 20 سم
تدمك : 978-977-85187-9-5
1- قصص
2- أمنيزيا
أ- محمد دافنشى
رقم الإيداع : 15860 / 2015



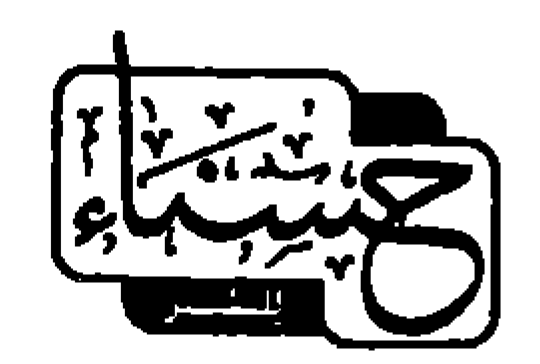
الإسكندرية ، ج . م . ع
01018831361
01022842898
المدير العام : عادل أبو الأنوار

المراجعة اللغوية : عادل أبو الأنوار
الإخراج الفنى : أمير مصطفى

آمنيزيا

رواية

محمد دافنشى



إهـــــــــداء

إلى منِ أعطتنى قلماً وورقة وأنا دون الخمس سنوات
لطالما كانت سعادتى أن أرى الفرحة بعينيك
لطالما تمنيت أن تري كل نجاح أحققه
لطالما عشتِ معي بروحك الطاهرة
أمى
رحمة الله عليكِ

دخان كثيف يغمرنى
ومضات الطريق
دماء تسيل من حولى
ألم وصداع شديد فى رأسى
قيود تكبّلنى
أجرى ...:..... بلا هدف
أصرخ ....بلا صوت
أين أنا ؟؟

{1}

وفتحت عينى ...
كنت أشعر أننى كنت نائماً لمدة عام واستيقظت أخيراً...
لم أكن أدرك كم من الوقت مرّ علىّ وأنا بهذه الحالة، وبدأت أجول بنظرى فى المكان حولى وأنا لا أدرك معنى لشيء .
أرى الأشياء لأول مرة ..
أبحث عن شيء لا أعرفه ولكنى لا أجده !
ولكن .. ما الذى يأتى نحوي هذا ؟
آه ... إنها فتاة تلبس ملابس بيضاء .... إنها تقترب نحوي ..
من تكون ؟ وأين أنا ؟
وانطلق هذا السؤال من فمى ووجدتها تبتسم وترد علي.

- أنت هنا فى مستشفى المدينة .. أهلا بك .. الحمد لله تظهر عليك آثار الشفاء، وأخيرا تتحدث بعد أن كنت تغمغم مدة طويلة بأشياء غريبة.
- أنا ... لماذا أنا هنا ؟!

(قلتها باستغراب وأنا أشعر ببعض الإعياء)

- لاتزعج نفسك بما حدث، والحقيقة أنا لا أعرف ما الذى حدث، المهم أنك الآن أحسن بكثير من ذى قبل، لقد تحسنت كثيراً ... كم كنت أتمنى أن أراك وأنت تتكلم هكذا، لقد مر وقت طويل ....

كانت تتكلم بحماس زائد، وكنت أسمع الكلام وكأنى فى حلم لم أستيقظ منه بعد ..

وسرعان ما شعرت ببعض الإفاقة على أثر كلامها وقلت لها باستغراب :

- وقت طويل ؟! من فضلك قولي لي كم مرّ عليّ وأنا ب هذه الحالة ؟

- إمممم ..... إنها حوالى ثلاثة أسابيع ..

لم أدرك المعنى حينها، وبعد لحظات استدركت وقلت لها مستنكراً :

- ثلاثة أسابيع ؟!

لم أسمعها وهى تلقى عليّ التحية وتخرج، أو حتى رأيتها وهى تغادر .....

كنت أدرك معنى الكلام بعد فترة من قوله وأفهم الأشياء بعد فحص كثير، ولكنى مازلت لا أفهم شيئًا، والذى يصبّرنى على هذا أنى لا أدرك كثيراً من ما حولى استلقيت على ظهرى وأنا أشعر بقيود تكبلنى وغرقت فى نوم عميق ..

بعد وقت لم أدركه بالضبط استيقظت إثر أشياء غريبة رأيتها فى منامى، إنها أشياء لا أفهمها ولا تعنى لى شيئاً.

لقد رأيت شخصاً يجرى ويبدو لى أنه أنا .

ولكن .. لماذا كنت أجرى وأنا خائف هكذا ؟

رأيت أشياء متداخلة لم أفهم منها شيئًا، واستيقظت على منظر دماء غزيرة .

لم تكن دمائى ... ولكنى كنت خائفًا ..... خائفًا بشدة .

طُرِق باب غرفتي طرقاً خفيفاً، فنظرت إليه فوجدت هذه الفتاة التى كانت هنا من قبل، ولكنى لم أكن قد تبينت ملامحها بشكل سليم، كانت بيضاء سوداء العينين والشعر، وتجمع

شعرها بشكل أنيق لأعلى، رقيقة الملامح ولكنها عريضة الكتفين قليلاً، مما يدل على أنها تمارس رياضة ما، وبادرتني وهي مبتسمة :

- كيف حالك الآن ؟

اكتفيت بالنظر لها وهي تضع منضدة صغيرة على السرير فاستأنفت :

- أراك فعلا بأحسن حال ..

وجلست بجانبي وبدأت تناولني الطعام وهي تقول :

- كل يوم أجلس بجانبك وأناولك الطعام وتأكل باستسلام، ولكني أراك اليوم تتفحص الطعام، لقد كنت لا تدركه من قبل واليوم تتذوقه، ها ... قل لي ما رأيك؟

كان كلما مرّ عليّ الوقت أشعر بتحسن، ولم أكن أتكلم كثيراً، وعندما انتهيت وبعد أن سألتني إن كنت أريد شيئاً آخر ولم أجب كالعادة، همّت بالخروج فتابعتها بنظري ووجدت شيئاً يخرج من حلقي، وقلت لها :

- شكراً ...

فالتفتت إليّ وابتسمت ... شعرت وقتها أنها كانت سعيدة لسماعها صوتي أخيراً فقالت :

- لا شكر على واجب، عشر دقائق وسآتي إليك ...

{2}

بعـد حـوالى أسـبوع كنـت قـد بـدأت في الكـلام، وكنـت مُجَبَّـرَ الـرجلين وإحـدى يـديّ، وبـدأت بتـذكر بعـض الأشـياء، منهـا أنى مسـلم، عنـدما وجـدت نفسـى أردد آيـات قرآنيـة، لم أكـن أعلـم مـاذا أردد فى بـادىء الأمـر، ولكـن أخبرتـنى بـذلك تلـك الفتـاة التى تلبس الأبيض .

وأدركت حقيقة أنى فقدت الذاكرة .

كنـت قـد اعتـدت على محادثـة هـذه الفتـاة فقـد ارتحـت لهـا كثـيراً وكنـت لا أطيـق أن تتـأخر علـيّ، وسـرعان مـا أخـذت فى التعـافى وفككت تجبيرى .

كـان اسمهـا (هالـة).. هـى مـن أخبرتـنى، وقالـت لى إنـه لابـد مـن أن تنـادينى باسـم مـا، فأطلقـت علـيّ (كيمـو)، وحينهـا سـألتها ضاحكاً :

- كيمو ؟! ولماذا هذا الاسم ؟
- اممم لا أدرى، هو ما خطر على بالى، ثم إننى أجده يليق عليك .
- إذن أنا من هذا اليوم (كيمو) ، وهو كذلك ،أنا أيضا أجده لائقًا، ولكنه نوعاً ما مضحك .

كنـا وقتهـا نسـير فى ردهـات المستشـفى وفى الحديقـة المحيطـة بهـا، كانـت كـل يـوم تأخـذنى ونسـير بعـد انتهـاء دوامهـا، فى حـين كـان بـالى مشـغولاً بمـا أحـس بـه مـن أشـياء غريبـة وشـعور بأشـياء قريبـة جداً من ذهنى ولكنى لا أجد لها تفسيرًا .

كانت حالتى هذه تذكرنى بمن يقرأ كلاماً بلغة غريبة، فهو يحتاج فقط إلى ترجمتها .

كنت أرى أشياء فظيعة فى نومى وأستيقظ مرعوباً منها ...

بمرور الأيام بدأت أتعافى وأمشى وحدى ، لم أكن أدرى من أين جئت وأين سأذهب، أخذونى بعد ذلك إلى ما يشبه مستشفى أخرى كانوا يدربوننى فيها على تنشيط ذاكرتى وأخذوا بصماتى، وخصصوا لى حجرة كالتى كنت بها فى المستشفى حتى أنام بها .

واكتشفت بالصدفة أننى كنت مدخناً عندما وضع الرجل الذى كان يدربنى على تنشيط الذاكرة سيجارته فى المطفأة فأخذتها لا إرادياً وأخذت امتصها وأخرج الدخان من أنفى ..

ابتسم الرجل وقتها، لعله كان يقصد ذلك، فنظرت له عاقداً جبينى وسألته :

- لماذا تبتسم ؟
- أرى أنك كنت تدخن ..
- نعم .. أظن ذلك.
- لا أقصد الآن بل أقصد فيما مضى ..
- وأنا أيضًا أقصد فيما مضى (قلتها مبتسما)
- ألا تتذكر نوع سجائرك المفضل؟

حاولت وقتها أن أتذكر أى شيء ولكن بلا جدوى، وكأن عقلى صندوق أسود غارق فى بحر مظلم منذ مئات السنين .

بعد أيام بينما كنت نائما ، أيقظونى وقالوا لى إن شخصاً يريد رؤيتى، وجلست بانتظاره وكنت أفكر فيمن سيكون هذا الشخص، وأنا أقول لنفسى بصوت منخفض :

- من الذى يريدك يا (زيد) ؟

(زيد)!!.. من هذا ال (زيد) ؟!... إنه أنا ..... أنا (زيد)، وقفزت على السرير وأنا سعيدٌ جدا :

- أنا (زيد) ...... أنا (زيد) .

ولكن .... كيف خطر اسمى على بالى ... لا أعرف ... المهم أنى تذكرت اسمى بدلاً من هذا ال (كيمو).

ودخل من كنت أنتظره، لقد كانت (هالة)، دنياى الجديدة، (هالة) قريبتى الوحيدة، جاءت اليوم ويبدو أنها فى إجازة من العمل، فقد أتت بملابس غير التى اعتدت رؤيتها بها فى المستشفى، والحقيقة لقد كنت أتحرق شوقاً لرؤيتها .

رأيتها أجمل فتاة فى الدنيا، وشعرت أنى أحتاج إليها فقلت لها صائحًا:

- (هالة) ... لقد اشتقت كثيراً لرؤيتك ..

ثم تذكرت أنى تذكرت اسمى فاستأنفت قائلاً :

- أنا (زيد) يا (هالة) .... أنا اسمى (زيد)، لقد تذكرته عند دخولك .

ورأيتها تبتسم فرحا ودموعها تنسال على وجنتيها لفرحى، وأخذتها بين يدى بحركة لا إرادية وضممتها إلى صدري للحظات وهى مستسلمة، ثم افترقنا وظللت أنظر إلى عينيها الدامعتين وهى تنظر إلىّ، لقد رأيت الحب فى عينيها وكنت أكاد أطير فرحا ...

فقالت بصوت مبحوح :

- إذن .. لا (كيمو) بعد اليوم .

- أجد أى شىء يخرج من هذا الفم جميلاً، مستعد أن أكون (كيمو) أو أى اسم تطلقينه علىّ .

ابتسمَت فى خجل فى حين مددتُ يدى وأزحت خصلة من شعرها انسدلت على عينيها، فنظرت لى وأمسكت بيدى وابتعدت قليلا لتقول :

- وهو كذلك يا (زيد) ..

ياله من شعور جميل يتجدد كلما أراها وأسمعها تنطق باسمى، وجلسنا نتحدث وأخبرتنى أنها استأذنت لى من المصحة وأخذت تصريحا بخروجى .

خرجنا سوياً وجلسنا نتحدث عند الشاطىء حتى المساء، وبعد فترة من الحديث جلسنا نتأمل ضوء القمر الخافت فى هذا الليل الجميل ونستمتع ببرودة الجو مع نسمة الهواء الرقيقة فى هذا الوقت .

وسرعان ما بدأت الخواطر تتردد على بالى وتذكرت الرجل الذى كان يتحدث معى بعد خروجى من المستشفى عندما أخذت سيجارته ودخنتها، لقد تذكرت بأثرها سيجارة أخرى وقعت من فمى .. ولكن أين ؟ ومتى ؟ لا أدرى.

إنه موقف محفور فى ذاكرتى وأتذكره الآن جيداً .

واستيقظت من خواطرى فجأة على من يدفعنى، فوجدت (هالة) التى كانت تحدثنى بينما كنت شارد الذهن واجماً فى أفكارى، قالت لى :

- إلى أين ذهبت ؟

- لا أدرى، إنها أفكار مشوشة تذكرنى بأيامى الماضية .
- هل تذكرت شيئاً ؟
- لا ... أجل ... أقصد ... لا أعرف، ولكنها أشياء لا أجد تفسيراً لها، إنها خواطر فحسب، تأتى وتذهب بين الحين والآخر .
- أجدك شديد الذكاء يا (زيد) فأنت تتذكر الأشياء ولكن تصبر حتى تجمعها، أو حتى تجد خيطاً مشتركاً بينها .
- ياليتنى أتذكر شيئًا ، فأنا أتخيل أشياء ورموزًا لا أفهمها .
- هل تستطيع أن تعطي لي مثالاً ؟

بعد تفكير قليل بدأت أستجمع بعض الأفكار التى تراودنى وقلت :

- مثلاً ....

لقد أخذت سيجارة بشكل عفوى من الرجل الذى كان يتحدث معى حول حياتى الماضية وتذكرت بهذا الموقف الآن موقفًا مشابهًا له، فقد كانت فى فمى سيجارة أيضاً ووقعت منى فجأة ... حقيقةً لا أجد تفسيراً لهذا... لعله كان حُلماً أو لعله شيء حدث لى فيما مضى .... لا أعرف، لقد تحيرت ..

كثيراً ما أجلس وأعتصر عقلى عسى أن أجد شيئاً ولكن بلا جدوى، وحين أتذكر هذه الأشياء تكون على غفلة مني.

- فهمت قصدك يا (زيد)، إن ذاكرتك تلاعبك، فحين تحاول التذكر لا تتذكر شيئًا، وحين تسهو عنها تذكرك بأشياء لا تفهمها، والحل لهذه المشكلة أن تأكل المثلجات....

وأعطـت لى كـوب المثلجـات الـذى اشـترته مـن بـائع كـان يمـر بجوارنا، فأخذته مبتسماً وبدأت بتناوله ...

فى حـين استدركت هـى كلامهـا كمـن تـذكرت شيئاً أرادت قولـه لى :

- لقـد نسـيت أن أقـول لـك إنـنى اطلعـت علـى تقريـر الحـادث الـذى حـدث لـك، وقـد ظهـر فيـه أن شـهوداً رأوك وأنـت تجـرى بـلا اكـتراث وصـدمتك شـاحنة كبـيرة، وقـد اتصـل بعـض الأشـخاص بالإسـعاف فأتـت بعـد حـوالى عشـر دقـائق، ولكـنهم لم يجـدوا معـك أى متعلقات شخصية أو إثبات شخصية ...

وأطرقت قليلاً وهى تنظر إلىّ ثم علقت قائلة :

- لعلهم سرقوها ... أولاد الحرام كثيرون ..

رفعـت رأسـى لأعلـى محـاولاً تـذكر مـا حـدث وظللـت أتأمـل النجـوم، وراحـت (هالـة) تنظـر إلىّ، وتـذكرتُ مـرة أخـرى السيحارة، ولكن هذه المرة كانت أقرب ...

أقرب بكثير ....

{3}

ودعتنى (هالة) ليلتها بعدما أوصلتنى إلى المصحة وذَهَبت ودخلت أنا، وكان الوقت متأخراً وكل من بالداخل نائمون ماعدا حارس الأمن الذى وجدته جالساً وحيداً يستمع للمذياع، فسلمت عليه وأعطانى مفتاح حجرتى، ولكنى لم أكن أريد النوم فقد كنت سعيداً .. فقلت له :

- ألا تمل الجلوس وحيداً؟

فنظر لى وكان وجهه تعلوه سمات الطيبة، وقال بصوت خفيض:

- وماذا عساى أن أفعل؟ إنه أكل العيش يا ولدى .. (وأشار لى بيده مستأنفاً)
أجلس يا ولدى .. لعلك لا تريد النوم ..

جذبت كرسيًا كان بجانب الحائط ليصير فى مواجهته وجلست فقال :

- كيف حالك الآن؟
- بخير الحمد لله أحسن بكثير ... ألا ترى ذلك ؟
(قلتها مبتسما)
- الحمد لله يا ولدى وأدعو الله أن يتم شفاءك وتعود لأهلك.

- لا أدرى يا حاج نبيل لماذا لا أريد العودة ، أشعر بأن هناك مصائب فيما مضى، مصائب كنت أريد الفرار منها .

- لماذا تقول ذلك ؟ أتتذكر شيئًا ؟

- لا .. بالطبع لا أتذكر، ولكنه شعور ينتابنى ، وإلا لم تكن هذه الحادثة تحدث لى ، فقد كنت أجرى من شىء، ولعله شىء لا أريد تذكره، لعله كان شيئاً سيهلكنى وكنت أهرب منه....

استدركت قليلاً فوجدت الرجل متأملاً لحديثى وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة صغيرة، وقال بعد أن فرغت:

- أجدك تتحدث بلباقة يا ولدى، مما يدل على أنك إنسان متعلم ..

- متعلم .. نعم أنا حاصل على بكالوريوس فى التجارة !!

قلتها هكذا بدون تفكير، ووجدت الرجل محدقاً بى وهو فاغر فمه فقال :

- ماذا قلت ؟!

فقلت وأنا أقفز وأكاد أطير من الفرح :

- نعم .. أنا اسمى (زيد) ... (زيد عبد الله)، وحاصل على بكالوريوس تجارة إنما فكرة قُذفت بداخل عقلى الآن ولا أعلم من أين أتت، إن الأفكار تُقذف فى عقلى دون أن أدرى.

- نعم يا ولدى، فكثيراً ما يحدث هذا فى بعض حالات (الآمنيزيا) أو(الآمنيشا) لا أدري ماذا يطلقون عليها، ولكنها نوع من فقدان الذاكرة المؤقت يصاب به الشخص عند صدمة ما، ثم يبدأ الشخص فى التذكر رويداً رويداً حتى يتذكر كل شىء.

فأمسكته من كتفه وأنا أضحك وأقول له :

- أنت جميل يا حاج (نبيل) ...

ووجدتها على نفس القافية (جميل) و (نبيل)، فأخذ هو يرددها مبتسماً، ومن ثم استأذنته بالدخول وودعته إلى اليوم القادم ...

دخلت حجرتى سعيداً فى هذه الليلة، وغيرت ملابسى وأنا أدندن الأغنية التى كنت أسمعها بالمذياع، ولاحظت أنى أغنيها وكأنى أحفظها عن ظهر قلب، حتى أننى أكملت مقطعًا منها ولم أكن قد سمعته من مذياع الحاج نبيل، بالتأكيد كنت أعرف هذه الأغنية فيما مضى .

بعد ذلك صليت العشاء وجلست لقراءةِ بعض آيات القرآن، وما أجمل القراءة فى هذا الكتاب العظيم، فعندما أقرؤه أجد أن كلامه يلمسنى ويتغلغل بداخلى .

وارتميت على سريرى بعد فراغى مستلقيا على ظهري، وأخذت أتامل الجدران وفى قلبى بهجة غير عادية، فكرت حينها أنى لو رجعت لى ذاكرتى فربما أجد ما يعكر علىّ صفو حياتى التى باتت فى بدايتها، ولعلنى اقترفت من الأخطاء وتمنيت مثل هذه اللحظة التى أنا بها.

لحظة نسيان كل شيء والبدء من جديد .

وظللت على هذه النغمة أهز بها أوتار قلبى إلى أن غرقت فى بحر النوم ...

{4}

نمت كثيراً يومها واستيقظت فى اليوم الذى يليه على أجمل وجه رأيته وأتمنى رؤيته، لقد وجدت (هالة) توقظنى بقولها :

- أسرع يا زيد، هيا ارتدِ ملابسك ولنذهب من هنا.

لم آخذ كلامها بمحمل الجد وأخذت أتثاءب فى كسل وأنا مبتسم لها وقلت :

- صباح الخير يا (هالة) .... هل نمتِ؟

فلم تمهلني كي أكمل كلامى وأخَذت تصرخ فىّ بصوت مكتوم وتحثنى بالنهوض وقد أحضرت لى ملابسى ...

لم أدرك ماذا تريد وتغيرت ملامح وجهى واكتست بالجدية عندما وجدتها جادة جدا فى كلامها، وأخذت أرتدى ملابسى فى عجلة من أمرى بينما أنظر إليها وهى مولية ظهرها لي تسترق النظر عبر النافذة الزجاجية المطله على الشارع .

عندما فرغت قلت لها مبتسماً :

- هيا أنا جاهز ..

خطفت نظرة نحوى وتوجهت للباب ففتحته لها فخرجت مسرعة بينما كنت أتابعها بنظرى متعجباً وتبعتها للخارج ولاحظت أنها لم تأتنى بملابس للخروج كالأمس، فقد أتت بملابس المستشفى وقد استقرأت من هذا أنها أرادت إبلاغى بأمر مهم ..

وفى الردهة وجدت الحاج نبيل الذى لم يكن قد بَدّلَ مع زميله الآخر نوبة الحراسة، فبادرنى قائلا :

- صباح الخير يا زيد ..
- صباح الخير يا حاج .. ألم تنم منذ الليل ؟
فضحك وقال :
- أنت تعرف يا ولدى، ولكنى سأذهب الآن بأية حال..
ووجدت زميله الذى سيبدل معه الحراسة آتياً على الباب فاستأنف هو قائلاً:
- ألم تتناول إفطارك ؟
- لم أتناوله بعد، سأتناوله خارجاً ولكنى سأتناول العشاء معك مساءاً .
- سأنتظرك ؟؟

ووجدت (هالة) تنتظرنى على الباب وهى متضايقة نوعاً ما، فأشرت لها بيدى وقلت للحاج نبيل :
- حسناً.. إلى اللقاء ونتقابل بالمساء. .
فضحك بخبث وهو يغمز لى بعينه قائلاً :
- وهو كذلك يا زيد ..
وتبعتها مسرعاً إلى الخارج ونزلنا معاً درجات المبنى نحو الشارع وكنت أسترق النظر إليها فوجدتها مضطربة وتنظر للأمام دائما ولا تتحدث ، فقلت لها :
- ماذا حدث يا هالة ؟
بينما كنت أنظر إليها بإمعان وهى ما تزال صامتة ..
ونظرت إلىّ أخيراً دون أن تتحدث وظلت سائرة، وبعد لحظات نظرت لى مرة أخرى وقالت :

- لا أعرف يا (زيد) ماذا أقول لك ..

وأخرجت من حقيبتها بعض الأوراق المطوية وهى مترددة، وسحبت إحداها وأعطتها لى وهى تقول بصوت لا يريد الخروج :

- اقرأ هذا .

أخذت منها الورقة ببطء وبدأت فى فتحها وقلبي يخفق بشدة ..

وقعت عينى على بعض الكلمات التى لم أفهمها، ثم بدأت فى قراءة الورقة من البداية، لقد كانت تحمل اسمى، ليس اسمى فقط ولكنها بيانات كاملة عنى، لقد ذكرت اسمى بالكامل ومؤهلى وسكنى و .....

ووقعت عيناى على بعض الكلمات التى ظللت أقرؤها مراراً، لقد كتب فيها :

" إن المذكور تبين أنه مطلوب فى قضية قتل شاب وأمه، وهارب منذ شهر ونصف أى منذ ارتكاب الجريمة، نرجو التحفظ عليه لحين إرسال القوة ..... "

وما إن قرأت هذا الكلام حتى عجزت عن التفكير وأصبحت واجماً ساكناً بلا حراك، وتباطأت فى السير وحولت نظري لـ (هالة) فوجدتها تمسح دمعة سالت على وجهها، وظللت أقرأ الورقة على أحد كلاماً آخر وأنا غير مصدق لما كتب فيها ..

الآن عرفت نفسي الحقيقية، ليس أنا الإنسان النبيل الذى يعيش وسط الناس ويعطفون عليه، ليس أنا الذى يستحق الحب والشفقة، أنا إنسان مجرم قاتل لا يستحق العيش وسط البشر، وانحدرت دمعة على وجهى وبعدها أخواتها، وتأثرت بشدة مما حدث وانتابتنى القشعريرة .

قطعت (هالة) هذا الصمت وهى تتكلم بصوت متهدج :

- لقد جاءت هذه الأوراق اليوم مع صحيفة حالتك الجنائية إلى المستشفى على أثر البصمات التى أخذوها منك الأسبوع الماضى، وما إن قرأتها هناك حتى لم أطق الانتظار وأخذت نسخة منها وأتيتك بها قبل أن يقبضوا عليك.

نظرت لها وأنا أبكى وقلت بصوت متقطع :

- لم أكن أتصور بشاعتى هذه، كنت أدرك أنه لابد أن تكون بحياتى الماضية بعض الأخطاء، ولكنى لم أتصورها بمثل هذه الفظاعة، أنا أستحق القتل ...

كنا سائرين بينما أسب نفسى وهى تسمع ولا تتكلم، فقالت لى فجأة : .

- اسمع يا زيد، لابد أن تختفى الآن لفترة حتى نتبين الحقيقة ...

فنظرت لها ولم أتكلم، فقد لَمّحَت لى أنه من الممكن أن يكون هناك خطأ، وهذا ما كان يجول فى خاطرى ولكنى لم أبُح به، ففى قرارة نفسى أشعر أننى برىء مما هو منسوب إلىّ من تهم.

وانتبهت فوجدتها لا تزال تتحدث بينما كنت غارقاً بالتفكير، فقلت لها :

- ماذا قلت ؟

فقالت وقد بدا أنها لا تبالى بما عرفت :

- هل أنت جائع ؟!

فقلت بأسى :

- ومن له شهية لتناول الطعام ..

- لا عليك يا زيد ، كل مشكلة ولها حل إن شاء الله، ولكن هيا الآن لنتناول شيئاً، فليس أمامى سوى ربع ساعة حتى موعد المستشفى .

وتوجهنا لمطعم قريب وجلسنا حول طاولة صغيرة حيث طلبت لنا الطعام، وبدأنا فى تناوله صامتين، وسرعان ما خطرت فكرة ببالى فأخرجت الورقة من جيبى مسرعاً ونظرت بها ثم توجهت نحو تليفون كان موجودًا بالمحل على مقربة منى .

لقد خطر لى أن أتصل بمنزلى، وفعلاً بدت الفكرة غريبة ولكنى اتصلت، وطال رنين الهاتف وأخذت استعجله بهز قدمى سريعاً لا إرادياً، ورُفِعَت السماعة فى الجهة المقابلة، فتلعثمت قليلاً قبل أن أتفوه بشىء ثم قلت:

- أأأنا ...أأنا (زيد) ....

ولم أجد الإجابة وسرعان ما سمعت صوتًا مألوفًا لأذنى يقول متردداً:

- لا ... لا ... هذا رقم خاطىء، لا تتصل مرة أخرى...

وسمعت بعدها رنين انقطاع الخط ... لقد كان صوت سيدة وقد بدا التوتر الشديد على صوتها عندما ذكرت اسمي، أو ... لعلني كان يُهيّأ لي ذلك ...

ولكن لماذا أغلقت الخط دون أن تسمعني ...

كل هذه الأفكار أخذت تدور في رأسي لحظة غلق السماعة، ولكني لم أطق الانتظار للحظة أخرى من قسوة الزمان وأخذت أصيح وأطيح بالأشياء من جانبي دون أن أدري .. وبدأت أنتبه عندما وجدت الناس يلتفون حولي ويمسكون بي وبعضهم كان يحاول تهدئتي.

وكأنني خرجت من جسدي للحظات لأنظر إلى حالي بهذا الشكل، فأنا متهم بجريمة قتل ومنبوذ من عائلتي بالتأكيد، وها أنا ذا أصيح في الناس بلا سبب والبعض بالتأكيد يظن أن بي مسًا من الجنون، فما أتعسني.

رجعت لجسدي ثانية وأنا أنظر في الأرض خجلاً من وضعي بين الناس، ووجدت بعضهم يربت على كتفي ومنهم من يمد لي كوبًا من الماء، وهناك من يسأل عن سبب ما أنا فيه، و(هالة) من بينهم شقت الزحام وهي تقول :

- إنه معي .. اتركوه من فضلكم ..

قمت معها وأنا أتأسف وأشكر الناس وأبلغهم بأني أصبحت أحسن، وقمت متثاقلاً متحاملاً على ذراع (هالة) فقالت لي :

- ماذا حدث يا (زيد) .. لِمَ كل هذا ؟

وعندما عرفت أنى اتصلت بمنزلى أخذت تلومنى بقولها أنه لابد وأن الهاتف كان مراقباً من قبل الشرطة، ولم أرد عليها فقد كنت أشعر بأسى شديد .

أخذت (هالة) تربت على كتفى، وما إن اقتربنا من الطاولة حتى أجلستنى وطلبت لى مشروباً، ثم جلست أمامى وأخذت تنظر إليّ بإشفاق، ثم قالت بصوت خفيض:

- أنت إنسان طيب جدا يا (زيد)، ولا يمكن أن تكون قد ارتكبت مثل هذه الجرائم .

مدت يدها وأمسكت بيدى وهى تقول:

- أنا أحبك يا زيد، وسأساعدك مهما حدث، وأنا متأكدة أن كل شيء سيكون على مايرام.

نظرت لها وأنا أتنهد وقد ارتسمت على وجهى نصف ابتسامة، فقد أعطتنى بصيصًا من الأمل، على أنه مهما أظلم العالم أمام عينيك فستجد من يضيء لك ولو شمعة لتكمل بها طريقك.

وجدتها تنظر فى ساعتها بضيق، فقلت لها :

- هيا يا (هالة) اذهبى الآن للمستشفى فقد تأخرت ..

فردت عليّ منفعلة:

- لا .. لن أذهب إلى أى مكان وأتركك .

- أنا بخير يا (هالة) سأقصد أقرب مسجد لأصلى وأنتظرك به بعد فراغك من عَمَلِك.

- أرجوك يا (زيد) سأظل معك؟

ولاحظت أن بعض الناس يسترقون النظر إلينا، فقلت لها:

- دعينا نذهب من هنا أولاً ولنتحدث بالخارج.

- حسناً هيا بنا ..
- معذرة ...سأذهب لدورة المياه وسأوافيك حالاً..

وقصدت دورة المياه التى كانت بمؤخرة المحل، كان علىّ عبور الممر الطويل المؤدي إليها، ودخلت وغسلت وجهى ونظرت لصورتى الهزيلة فى المرآة، لقد اصفرّ لونى واحمرّت عيناى وظهرت بعض العروق بارزة على جبهتى ..

أخذت بعض المناديل الورقية لأجفف وجهى ونظمت ثيابى وهممت بالخروج، وفجأة ....
سمعت صوت سارينة الشرطة، لقد كان الصوت يقترب، فانتظرت قليلاً دون أن أخرج وأنا مترقب لأى حركة غير عادية.
ولم يحدث شىء غير عادى فحاولت النظر من سجف بين الباب والحائط فوجدت أن صاحب المطعم يتكلم مع أحد رجال الشرطة، فأغلقت الباب بسرعة واستندت إلى الحائط بظهرى رافعاً وجهى لأعلى والأفكار تنهال على رأسى، فلقد صدق ظن (هالة) عندما أخبرتنى أنه لابد أنهم يراقبون الهاتف منتظرين اتصالى، وأنا بكل سهولة أعطيتهم الفرصة ...

ولعل هذا الصوت الذى رد علىّ هو صوت أمى أو إحدى قريباتي ولم ترد أن تجعلهم يدركوننى، وكونى بعيداً عنهم أحسن لى...

الآن ظهرت لى بعض الحقائق وأخذت أرتجف خوفاً عندما جاءتنى فكرة أنهم سيفتحون الباب ويأخذوننى، وأخذ خوفى يزداد كل لحظة، ففتحت الباب مرة أخرى فوجدت باب المطبخ أمامى مباشرة، فأكملت فتح الباب وخرجت وتوجهت بسرعة نحو المطبخ، عابراً الطرقة الصغيرة، وأخذت أبحث في المطبخ عن أى باب أستطيع الخروج منه، ولم أجد أى مخرج آخر غير الذى دخلت منه المطعم، والذى بالطبع ينتظرنى عنده رجال الشرطة وصاحب المحل ..

وخطرت على بالى فكرة مجنونة عندما وجدت ملابس الطاهى معلقة على الحائط بجانب الباب، ولم أكمل التفكير فقد شرعت فى تنفيذها على الفور، وارتديت ملابس الطاهى واستجمعت قواى وخرجت وسط الناس مسرعاً الخُطا، فوجدت واحداً من رجال الشرطة يعبر نفس الممر أمامى متوجهاً نحوى، فلم أبالى وواصلت السير بخطوات ثابتة حتى إن كتفه احتك بكتفى، وأكملت سيرى ولم يتعرف علىّ أحد، وخرجت من بين صاحب المحل ورجل الشرطة الذى كان يتحدث معه و(هالة) من جانبهم بدت مذهولة لا تتحدث، رغم تعرفهاعلىّ عند عبورى بجانبهم، وخرجت وأنا أعد اللحظات بالساعات وأخذت فى كل خطوة أتمنى التى تليها حتى أبتعدت قليلاً .

فوجدت يداً تمسك بكتفى، فاستدرت مسرعاً وأنا أرتجف، فرأيت أنه طاهٍ آخر بنفس المطعم الذى خرجت منه.. عرفت

هـذا مـن ملابسـه الـتى تشـبه مـا أرتديـه، فبـادرنى متسـائلاً وعلـى وجهه ابتسامة صفراء:

- أأنت جديد هنا معنا ؟!

فابتلعت ريقى وتنفست بصوت عالٍ وقلت له بتهكم :

- نعم يا سيدى ... أنا جديد !!

فضحك قائلاً باستظراف :

- لابد أنه أول يوم لك هنا ...

ولم أطق الـرد عليـه فلمحـت اسمـه الـذى كـان علـى لافتـة صـغيرة أعلى جيب قميصه وقلت له :

- ألست "محمود" ؟

فقال وهو مازال يبتسم :

- نعم .. هل قال لك ..

ولم أعيره انتباهى وقاطعته قائلاً :

- لقـد تـأخرت اليـوم يـا محمـود ، وصـاحب المطعـم يقلـب الـدنيا عليـك .. هيـا اذهـب إليـه مسـرعاً حـتى لا يضـطر لطردك..

فمـا لبث أن سمـع هـذا الكـلام حـتى تغير لونـه وتـركنى وأخـذ يعدو نحـو المطعـم وأخـذت أنـا أعـدو فى الجهـة الأخـرى وأنـا أضـحك من هذا الموقف السخيف.

{5}

بعد عض كثير أخذت أبطىء من خطواتى وأنا ألتقط أنفاسى، كنت قد بعدت عن هذا المطعم الذى تركت به (هالة)، وأخذت ألوم نفسى، كيف تركت (هالة) هكذا وسط رجال الشرطة؟
أكيد إذ أنكرت هى معرفتها بى فسيتعرف عليها الناس، وسيقولون لرجال الشرطة إنها كانت معى، كيف تركتها؟ كنت وقتها أفكر فى نفسى فقط، كم أكرهك يا (زيد)، بالتأكيد أنت من ارتكبت هذه الجرائم، فأنت إنسان أنانى قاتل، لم أكن إنسانًا إن جاز لى القول، فقد كنت حيوانًا فى صورة إنسان، كيف لى أن أرتكب مثل هذه الجرائم ثم أهرب دون أن أنال العقاب؟

تعبت من التفكير وأخذت رأسى تدور والأفكار تجول بى هنا وهناك، فجأة وكأن سهمًا اخترق غبار هذا التفكير فبدده.

دوى صوت عظيم بجانبى، صوت جميل زالت على أثره هذه الأفكار السوداء، فقد كان هذا صوت الأذان، لقد كان صوتاً وكأنه تخمد ناراً بداخلى .
ومع صوت المؤذن أخذ جسدى فى الانتفاض وأخذت أبكى وأبكى، فقادتنى قدماى نحو هذا المسجد الذى يخرج منه صوت الأذان.

دخلت المسجد وأنا أنظر للناس وكأنما دخلت عالماً آخر، لقد كان شعور عظيم يتملكنى فجلست على الأرض وأرقدت رأسى على الحائط غير مبالٍ بهمومى وبحياتى السابقة .

****

بينما كانت هالة هناك فى المطعم وقد رأتنى خارجاً بجانبها فحبست أنفاسها ظناً منها أنهم سيلقون القبض علىّ بين لحظة وأخرى، وما إن مررت بجانبهم ولم يشعر بى أحد حتى استدارت هى الأخرى وانطلقت، وعندما فرغ رجال الشرطة من تفتيش دورة المياه ولم يجدونى، سأل الضابط صاحب المطعم فلم يفده بشيء وأقسم له أنه رآنى أدخل دورة المياه، وسرعان ما تذكر صاحب المطعم (هالة) فقد كانت برفقتى، وعندها أشار لمكان جلوسنا سابقاً فلم يجدها هى الأخرى .

عندئذ أخذ رجال الشرطة فى الانتشار حول المكان ولكنهم لم يجدوا شيئًا، ونظرت (هالة) خلفها فرأت هذا المنظر فواصلت سيرها بشكل طبيعى مختلطة بالناس ..
أسرعت إلى المستشفى ودخلت، وبشكل روتينى اندمجت في العمل وكأنها لم تغادر قط .

****

بينما أنا جالسٌ فى المسجد أرحت رأسى ببساطة إلى جانبى أخذتنى غفوة من نوم ووجدت من يوقظنى، فانتفضت على

أثـر هـذه الـوكزة فتراجـع هـو قلـيلاً، وقـد كـان أحـد الأشـخاص يوقظنى لأنه حان موعد الصلاة .

تـداركت نفسـى وقمـت مـن جلسـتى وأنـا أشـكره وتوجهـت لمكـان الوضـوء، وإذ بى أرى شخصـاً يخـرج مـن دورة الميـاه وهـو يشـد سـحاب بنطالـه، فتوقفـت قلـيلاً وأنـا أحـدق ببنطالـه – لقـد كـان هنـاك شـيئاً غريبـاً لم أفهمـه– ونظـر هـو إلىّ باسـتغراب وأنـا أنظـر إلى بنطاله، بينما انتبهت وأشحت بوجهى عنه .

توجهـت لمكـان الوضـوء ورأسـى تـدور وتقلـب الماضـى علـى الحاضـر وتوقفـت عـن التفكـير، فقـد عرفـت مـا هـو الإحسـاس الغريب الذى انتابنى عندما رأيت سحاب بنطال هذا الرجل ..

لقـد تـذكرت علـى أثـره سـحاب بنطـال رجـل آخـر، أو بـالأحرى رأيـت رجـلاً يشـد سـحاب بنطالـه بهـذا الشـكل مـن قبـل، ولكـن هـذا المنظـر لابـد وأنـه أثـر فىّ مـن قبـل بشـكل سيّئ، تُـرى مـن هـو هذا الرجل؟ وأين كان هذا ؟

إنـه بالضـبط كمنظـر السـيجارة الـتى تـذكرتها وهـى تقـع مـن فمـى بشـكل غريـب وأثـرت هـذه أيضـاً فىّ فيمـا مضـى، تُـرى مـاذا حدث فى هذا الماضى ؟

توضـأت ثم خرجـت للصـلاة بينمـا كانـت الأفكـار تشـتعل فى رأسى ..

{6}

هناك فى المصحة التى كنت بها دخل بعض رجال الشرطة يبحثون عنى ولم يجدونى بالطبع، ولكنهم توقفوا فجأة، فقد رأوا من يجلس خلف الحائط بينما يظهر نصف كمه، وكأنه متوارٍ منهم، فأشار ضابط الشرطة لرجاله بأن يلتزموا الصمت بينما تقدم ببطء ، والتفّ مرة واحدة نحو من كان متواريًا خلف الحائط وهو يصيح :

الزم مكانك ...

بينما من كان خلف الحائط هو الحاج نبيل، الحارس الليلى للمصحة، وقد كان نائماً على كرسيه فقام مرة واحدة وهو يرتعد من منظر رجال الشرطة الملتفين حوله...

فعبر رجل الشرطة عن استيائه وهو يمط شفتيه ويدخل مسدسه فى جرابه وهو يقول :

- المعذرة لم نكن نعلم أنه أنت ..

فرد الحاج نبيل بخوف وهو مازال غير مدرك للموقف:

- من أنتم ؟ وماذا تريدون منى ؟؟ أرجوكم لاتؤذوننى ...
- لا تخف يا رجل .. نحن رجال شرطة، ونبحث عن شخص كان يقيم هنا..
- اسمه (زيد) .. (زيد عبد الله) .. ألا تعلم مكانه ؟
- (زيد) ؟ ..بالطبع كان هنا، ولكنه لم يأتِ إلى الآن، لعل الأمور بخير ..

- لا.. الأمر ليس خير إطلاقاً .. إنه متهم فى جريمتى قتل ..جريمتى قتل .. أفهمت ؟

(قالها رجل الشرطة وهو يبتسم ابتسامة صفراء)

- جريمتى قتل .. لا لا .. إنه فتى صالح .. لاأظنه متورطاً بمثل هذه الجرائم ..بالطبع تقصدون شخصاً آخر ..

- نحن نقصده هو تحديداً .. وهو هارب منذ ما يقرب من الشهر والنصف بعد ارتكابه جرائمه ..

وسكت رجل الشرطة قليلاً وهو ينظر للحاج نبيل الذى بدا متأثرا مشتت الفكر واستأنف قائلاً :

- لعله كان يريد أن يضلل رجال الشرطة بهذه الأقاويل عن فقدانه الذاكرة وما إلى ذلك، ولعله برع فى ذلك .. بدليلٍ أنه قام بخداعك وجعلك تصدق أنه رجل طيب لايقدم على القيام بمثل هذه الأفعال .

حينها أخذ الحاج نبيل كلام ضابط الشرطة وأخذ يقلبه فى رأسه، بينما كان الضابط يقول له:

- عموما نحن ندرك أنه ليس لك شأن به، ولكنك رجل أمن ومن مهمتك مساعدتنا، فلو عرفت أى شىء عنه نرجو أن تبلغنا على الفور.

وهم الضابط بالرحيل بعد أن تأكد هو ورجاله أن (زيد) غير موجود حين قال الحاج نبيل :

- لعلنى فعلاً خُدعت ..

- ماذا قلت ؟؟

- أقول لعله نجح فعلاً فى خداعى وتمثيل دور البرىء أمامى... لقد تذكرت ..

لقد جاءت اليوم فتاة واصطحبته معها، وقد كانت فى عجلة من أمرها، أظنها قد أتت لتجعله يهرب بعدما علمت الشرطة بأمره .

انعقد حاجبا رجل الشرطة ثم قال باستغراب :

- ألا تعلم من هى هذه الفتاة؟
- أظننى رأيتها مرة أو مرتين .. ولكنى أتذكرها جيداً .. لقد كان اسمها (هالة) وهى تعمل ممرضة بمستشفى المدينة، هذا كان واضحًا من ملابسها، وأظن أنها المسؤولة عن تهريبه.

ولم يكد يسمع الضابط مثل هذا الكلام حتى أمر رجاله وبسرعة خرجوا من المصحة نحو المستشفى .

وأخذ الحاج نبيل يقلب الأفكار فى رأسه وتذكر عندما كان يتبادل الحديث معى عندما تذكرت فجأة أن اسمى (زيد عبد الله) وحاصل على بكالوريوس فى التجارة، لقد ظن أنها ذلة لسان وقعت بها، ولكنى تداركت نفسى حتى لا أفضح نفسى أمامه .

****

حينها كنت أراقب باب المستشفى ووجدت رجال الشرطة يدخلونه مسرعين، فتأكدت أنهم عرفوا بأمر (هالة) وشعرت باستياء شديد وترددت فى القيام بتسليم نفسى أو الرجوع حتى تظهر لى الحقيقة، ولم أجد إلا أن أسلم نفسى إليهم .

توجهت إليهم وأنا أخطو كل خطوة بثقل الجبال ومرت على هذه الثواني سنوات وأخذ قلبي يخفق بسرعة عالية، وعرفت أنها نهايتي ..

وفجأة وجدتهم يخرجون من المستشفى ويبدو عليهم الحيرة والقلق، ووقف الضابط لحظة عند باب المستشفى ينظر حوله وتوقعت أنه رآني، إلا أنه أشار لرجاله باستئناف السير وركبوا عرباتهم وذهبوا بعيداً ..

حينها توقفت أنا مكاني بالقرب من باب المستشفى وأنا غير مدرك لما حدث، فكيف لم يقبضوا على (هالة) وأنا متأكد أنها بالداخل؟

تضاربت الأفكار في رأسي، ولكني تقدمت بأي حال بعد مغادرة رجال الشرطة وتدرجت السلم الخارجي للمستشفى ودخلت من الباب الزجاجي، ومن نظرتي الأولى للمكان وجدت كل شيء روتينيًا جدا، فتقدمت نحو مكتب كبير للاستقبال يجلس خلفه بعض الموظفين وسألت أحدهم :

- بعد إذنك أريد أن أتحدث إلى الآنسه (هالة).
- (هالة) ؟ .. من تكون الآنسه (هالة) ؟
- إنها تعمل ممرضة هنا بالمستشفى .
- لا توجد ممرضة هنا بهذا الاسم يا أستاذ .

فابتسمت بيأس وأنا أجادله قائلاً :

- بالتأكيد أنت مخطئ أو لعلك حديث العمل هنا ..
- يا أستاذ أنا قلت لك إنه ليست هناك من تعمل هنا بهذا الاسم ..

- لا .. إنما تعمل هنا .. أنا كنت هنا وأعرف كل شيء عنها ..

قلت كلامي بصوت عالٍ فتردد الرجل وأشار لإحدى الممرضات التى أتت على الفور وقال لها مشيرا إلىّ :

- الأستاذ يقول إن هناك ممرضة تعمل معنا وتسمى (هالة)

فنظرت لى الممرضة وهى تتفحصنى وقالت :

- لا توجد (هالة) فى طاقم العمل الخاص بنا، ولا فى الفترة الصباحية .

حينها اشتطت غضبا، ولكنى تذكرت أن موقفى صعب ومن الممكن أن يبلغوا الشرطة عنى، ووجدت أن الناس بدأت تلتف حولى، فاستدرت مسرعاً وهممت بالخروج حتى أنى تعثرت وكدت أسقط أرضاً .

خرجت من الباب ونزلت الدرج مسرعاً وقد تكالبت علىّ الدنيا وأصبحت بلا وجهة وبلا هدف ..

كيف يحدث هذا ؟ أكانت (هالة) أيضاً كذبة !!

أصبحت لا أعي شيئًا، مشتت الذهن، وأخذت فى السير على نفس طريقى، لا أعرف أين أذهب، أو من أين جئت!

{7}

أخـذت الأفكـار تتصـارع فى رأسـى وأخـذت أعتصـر عقلـى كـي أتـذكر شـيئًا ولكـن بـلا جـدوى، لقـد أصـبحت حيـاتى الماضـية كالصندوق المحكم الإغلاق ..

ولكـنى تـذكرت موقـف السـيجارة، إنـه موقـف محفـور فى رأسـى وذهـنى، فـرغم نسـيانى لكـل شـىء إلا أنـنى أتـذكر دائمـاً هـذه السـيجارة وكـأننى أرانى بهـا الآن، ولكـن دون أن أتـذكر المكـان أو الزمان تحديداً أو حتى الموقف الذى كان يجمعهما .

أخـذت أعتصـر عقلـى حـتى أسـتطيع إدراك مـا هـى هـذه السيجارة ومتى وقعت من فمي، ثم تـذكرت موقـف الرجـل الـذى كـان يشـد سـحاب بنطالـه .. فأنـا أتـذكر موقفـاً مشـابهاً لمـا رأيتـه، ولكن كان فى مكان وزمان مختلفين ... فمتى كان ؟؟

المسـألة كلهـا أشـبه بسلسـلة بهـا حلقـة مفقـودة وأنـا الآن أسـعى للحصول على هذه الحلقة ..

تعبـت مـن كثـرة السـير وتعبـت مـن التفكـير واسـتوقفنى مشـهد تجمـع كبـير، فاقتربـت منـه بـبطء؛ فقـد كانـت الأضـواء مبهـرة وأصـوات هتـاف النـاس عاليـة، لقـد كـان أشـبه باحتفـال يقـام بهـذا المبنى الكبير...

المبـنى المـزين بصـليب ضـخم فى قمتـه، إنهـا كنيسـة، لا أعلـم لمـاذا تراجعـت قلـيلاً وهممـت بالـذهاب بعيـداً ولكـنى وجـدت مـن يشـير لى بالـدخول، فاعتـذرت لـه بإشـارة مـن يـدى، ولكنـه أصـر وتقـدم ليمسك بذراعى قائلا :

- تقدم يا أخى هذا بيت الرب .

وسرعان ما وجدت آخرين يشيرون لى بالدخول وهم مبتسمون، فدخلت معهم وأنا أستكشف المكان من حولى، كان المكان أشبه بخلية نحل، كل واحد بالداخل مشغول بعمل شيء ما، كان فيما يشبه عقد قران، وتقدمت مع الرجل وأنا أتلفت حولى ولا أدرى لماذا أتقدم معه، نوعا ما شعرت بارتياح له وجلست على أحد المقاعد وأنا أتابع مراسمهم، كان المكان جميلاً جداً، واللوحات الزجاجية تغطى النوافذ والجدران، ورائحة البخور تتغلغل بداخلى وتبعث على الراحة النفسية .

وبعد وقت قصير وجدتهم يتحركون نحو مأدبة بها كل ما لذ وطاب من الأطعمة الساخنة، فقد كان الدخان يتصاعد منها فى شكل يشير الجائع مثلى، فتحركت معهم بدافع من معدتى الخاوية وهى تصرخ فىّ لكى ألبى نداءها.

اتخذت مقعداً وأنا أقترب بحذر وأنظر للناس، ووجدت أحد الأشخاص ينظر لى ويبتسم ثم قال :

- أنا أول مرة أراك هنا.. ما أسمك ؟

ترددت قليلاً ثم قلت له :

- أنا(زيد) .. (زيد عبد الله).

وجدت علامات الاستغراب عليه مع الاحتفاظ بنفس الابتسامه ثم قال :

- وأنا(بيشوى) يا(زيد) ... أهلا بك .. إنه إكليل أخى (فادى)... هل تعرفه ؟

- لا أعرفه ... لقد كنت أمر بجانبكم ووجدت من يدعوننى للدخول..

- لا عليك يا أخى الكريم ... إنه بيت الرب ... كل واستمتع .
- أشكرك .

ووجدت الرجل الذى أدخلنى من قبل جاء ليضع أمامى بعض المأكولات الإضافية وهو يربت على كتفى ويحثنى على الأكل، كنت أشعر باطمئنان وألفة، وخصوصا من وجه هذا الرجل، ابتسمت وأخذت أنظر للطعام الجديد قبل أن آكله ووجدت (بيشوى) يميل عليّ ويقول لى :

- لا تخف إنه ليس لحم خنزير (قالها مازحاً)

ابتسمت له وأخذت آكل بصمت إلى أن شبعت تماماً، وهممت بالخروج فوجدت الرجل الذى أدخلنى وأتى لى بالمزيد من الطعام، فتوجهت نحوه لأشكره على حفاوته الغريبة بى، كان يجلس بالقرب من البوابة، وعندما اقتربت منه وجدته يبتسم ويقول لى :

- هل شبعت ؟
- الحمد لله، لقد امتلأت .
- فضل ونعمة من الله يا (زيد)
- (زيد) ؟! هل تعرفنى ؟

ابتسم الرجل وأشار لى على معقد بجانبه كى أجلس وأردف قائلا :

- لم أعرفك إلا اليوم، ولكنى سمعتك تقول اسمك على المائدة.. ألا تتذكر ؟

جلست بجانبه قرب البوابة الكبيرة وأنا أقول :

- لماذا هذا الكرم؟ لقد شككت للحظات أنك تعرفنى من قبل .
- وهل ينبغى أن أعرفك سابقاً حتى أكرمك لاحقاً .

لم أدرِ ماذا أقول له وأخذت أنظر له بامتنان، إنه لا يعرفنى ويعاملنى بكرم ليس له مثيل فقلت له :

- لم أنل شرف معرفتك بعد ....
- أنا (يوسف) .. (يوسف حنا) .. أعمل هنا بالكنيسة منذ ما يقرب من ثلاثين عاماً.
- تشرفت جدا بك يا حاج يو...أقصد يا أستاذ (يوسف)

ضحك الرجل وقال لى :

- قلها ... إن جيرانى فى الشارع يقولون لى حاج (يوسف) وهم يعلمون أنى مسيحى .
- لا أدرى لما أقولها دائما لأى شخص أكبر منى سناً .. على الرغم من نسيانى لكل شيء.
- نساينك كل شيء؟

ابتسمت وأنا أرفع رأسى وأستشعر برودة الجو واستأنفت:

- إنها قصة طويلة يا حاج (يوسف)
- الرب قادر على أن يرد لك ما خفى عنك .
- يارب .

كان الناس يخرجون أمامنا بعد أن فرغوا من الاحتفال، ووجدت الرجل ينظر لى بتمعن، ثم قال وهو متردد قليلاً:

- هل تدرى لِمَ أدخلتك يا (زيد)؟
- لِمَ أدخلتنى ؟ .. هذا ما أود معرفته حقيقة.

- إنك تذكرنى بولدى .. إنه بمثل سنك تقريباً .. حتى أنه يمتلك نفس لون الشعر البنى الداكن لديك وعينيك العسليتين ... عندما رأيتك قلت فى نفسى هل هذا ولدى قد آتانى أخيراً؟
- ألا تعلم مكانه؟
- إنه غائب منذ فترة طويلة .. طويلة جدا.
- ألا تدرى أين ذهب ؟
- هاجر منذ فترة طويلة، لم تكن تعجبه أحوال البلد وقرر استكمال دراسته بالخارج، ومنذ ذلك الحين ولا أدرى أى شىء عنه .

لم أدرِ ما أقوله له واقتربت من حاج (يوسف) وأنا أربت على يده قائلاً :

- اعتبرنى ولدك من الآن .

فربت الرجل على يدى هو الآخر وابتسم وبعينيه بعض الدموع قائلاً :

- هذا شرف لى يا ولدى ..

جسلنا صامتين قليلاً، لم أكن أريد الرحيل، وشردت بذهنى قليلاً وأنا أتابع عصفوراً على إحدى الأشجار القريبة وقد لمعت أوراقها فى ضوء القمر المتسلل من بين السحاب .

وانتبهت على صوت الحاج (يوسف) وهو يقول شيئاً ما فقلت له :

- ماذا كنت تقول ؟
- كنت أسألك عن هذا الجرح فى معصمك .
- جرح ؟!

وجـدت أن بمعصـمى الأيسـر جرحًـا يبـدو عليـه أنـه حـديث نسبياً ولا أظن أنه كان من الحادثة التى وقعت لى، فقلت له :

- لا أدرى يا حاج (يوسف)

تعجـب الرجـل مـن ردى وقمـت مـن علـى الكرسـى مودعـاً إيـاه، لقـد كنـت أشـعر بشـىء غريـب فى هـذا الجـرح، مجـرد إحسـاس، أسـرعت الخطـا خارجـاً مـن بوابـة الكنيسـة وأنـا أنظـر لهـذا الجـرح الغريـب، فقـد كـان عبـارة عـن خـدوش وأخـذت أتحسسـه بيـدى وسـرعان مـا شـعرت بـوميض فى عقلـى، وكـأن حيوانًـا مفترسًـا يهاجمنى مسبباً لى هذا الجرح ..

رجعـت لـوعيي بسـرعة وأنـا أتلفـت حـولى، وتحسسـت الجـرح مـرة أخـرى وأنـا أتفحصـه هـذه المـرة ولكـن تلاشـت الـذكريات مـنى هذه المرة .

{8}

وجدت قدمَيّ تقودانى نحو المصحة التى كنت بها، فتقدمت نحوها فوجدت الحاج (نبيل) يجلس كعادته يقرأ فى إحدى المجلات، ما إن رآنى حتى هب واقفاً.. فلم يكن يتوقع أن آتى ثانية، فقال وهو يرفع حاجبيه متعجباً فى صيحة :

- (زيد).. ؟!

قلت له باستغراب :

- نعم ياحاج (نبيل) .. (زيد) .. ألم تكن تتوقع رؤيتى هذه الليلة ؟

فابتسم لى باصطناع وقال وهو يتلعثم :

- أين كنت يا (زيد)؟.. لقد تأخرت كثيراً يا رجل..

كان يتصنع عدم معرفته بشيء، ولكن إذا كان ذلك كذلك، فمن ذا الذى أرشد رجال البوليس إلى (هالة) فى المستشفى؟ فهو الذى رآها عندما أتت إلىّ ..

ولكنى جاريته بأى حال وقلت :

- لا أبداً .. كنت أتسكع خارجاً ..

ووجدنى واقفاً مكانى لا أتحرك فقال :

- لماذا تقف هكذا ؟

وأشار لى بأن أدخل الغرفة مستأنفاً :

- هيا أدخل إلى غرفتك .. فإنه يبدو عليك الإرهاق ...أدخل لتستريح ولتخبرنى بكل شيء فى الصباح .

فنظرت له طويلاً قبل أن أجلس، ثم تقدمت وجلست على أحد الكراسى وقلت له :

- تفضل ياحاج بالجلوس .. أريد محادثتك قليلاً ..
- لحظة واحدة يا (زيد) وسآتيك على الفور ..

وغاب قليلاً ثم أتى، بينما تباطأ ثم تقدم وجلس أمامى قائلاً:

- لعل الأمر خير يا (زيد)..

كنت أفكر فيما سأقوله له ولم أجد بداً سوى أن أصارحه بكل شيء وأحكي له ماحدث لى فقلت:

- أريدك أن تسمعنى جيدا يا حاج ... (ونشأت فى رواية ما حدث لى بالتفصيل)..

****

فى ذلك الوقت بقسم الشرطة كان هناك حوار آخر حيث دخل أحد العساكر لمكتب الضابط الذى كان يبحث عني وأتى للمصحة من قبل وقال له بعد أن رفع يده لأداء التحية العسكرية :

- تمام يا أفندم ..

فقال الضابط باهتمام :

- ها .. ما الأخبار؟
- لقد اتصل حارس الأمن الذى كان بالمصحة وقال إن المجرم الذى كنا نبحث عنه أتى إليه الآن .. وقد غافله الرجل واتصل بنا .. وهو الآن معه يجاريه فى الكلام حتى نأتى إليه ..

فنهض الضابط عن كرسيه بسرعة قائلا للعسكرى :

- جهز القوة ولنتحرك بسرعة ..

وخــرج مســرعاً خلــف العســكرى وهــو يرتــدى قبعتــه اســتعداداً للقبض عليّ ...

بعـد فراغـى مـن روايـة مـا حـدث للحـاج (نبيـل) منـذ أن خرجـت صـباحاً ومعـرفتى بمـا حـدث مـن (هالـة) حـتى ذهـابى للكنيسـة، وجدته واجماً لا ينطق بكلمة ..

ظللـت أنظـر إليـه وأنـا يـائس وأريـد أن أسـتمد القـوة مـن أى كلمـة يقولهـا لى تشـد مـن أزرى، حقيقـة كنـت فى أشـد الحاجـة ولـو لكلمة يطيب بها خاطرى ..

وتكلـم أخـيرا وهـو يبـدو عليـه الارتبـاك بعـد أن وجـد بكلامـى الصدق :

- معنى ذلك أنك لم ترتكب أى من هذه الجرائم ...

ابتسمت من حيرتى وقلت له :

- لقد قصصت عليك كل ما حدث .. ولك الحكم ..

وجدتـه ينظـر لى وقـد تغير لونـه وكـان يبـدو عليـه التـوتر الشـديد فاستأنفت قائلاً مترجياً :

- دلـنى يـا حـاج .. مـاذا أفعـل ؟ ... أرجـوك فـإنى أحتـاج لنصيحتك ...

أخذ يحدق بى ثم أمسك بذراعى بغتة قائلاً :

- اهرب يا ولدى ... اهرب بسرعة ..
- ماذا تقول يا حاج؟.. أتنصحنى بالهروب ..

فقام من جلسته جاذباً إياى قائلاً :

- هلـم يـا (زيـد) .. اهـرب بسـرعة ... لقـد عرفـوا مكانـك وسـيأتون للقـبض عليـك ..اهـرب ... اهـرب حـتى تكتشف الحقيقة .. اهرب بسرعة يا ولدى ..

- عرفوا مكانى .. كيف هذا ؟
- الذنب ذنبى أنا .. فقد أبلغت عنك .. أنا آسف ياولدى .. ولكن أهرب الآن ..

لم أنتظر حتى ينهى كلامه وطرت خارجاً وأنا شديد التوتر، وأخذت أجتاز الشوارع الواحد تلو الآخر، وكانت تأتى فى مخيلتى صوراً غريبة من حياتى الماضية وتنبهت فجأة على صوت طلقة نارية، سمعتها فجأة تدوى فى أذنى ..

أدرت وجهى ناحية الصوت فإذا به يصدر من إحدى محلات الألعاب حيث كان أحد الأطفال يجرب بندقية لعبة، نظرت كثيراً نحو هذه البندقية وفجأة ....

وكأن الأفكار سُكبت فى راسى ... وتجسدت بندقية حقيقية أتذكرها جيداً ...

نعم لقد تذكرت كل شىء الآن ... فقد كنت فى الجيش وكنت أتدرب وقتها على التصويب ..

لقد كنت أؤدى الخدمة العسكرية بعد أن فرغت من دراستى الجامعية ..

راحت رأسى تؤلمنى وأخذت أجرى إلى أن وصلت إلى كورنيش البحر .. فنظرت إلى المياه المتلألئة ليلاً وراحت الأفكار تنهال علىّ ....

{9}

بعد انتهاء فترة تدريبي فى الجيش، أصبحت خدمتى العسكرية فى مقر المستشفى العسكرى بالمدينة، كانت الأيام تمر بهدوء رغم أنى كنت مفتقدًا أمى وأهل قريتى الجميلة وكنت أشعر بالوحدة حتى وأنا وسط زملائى فى الخدمة إلى أن قابلتها....

(حياة)..

كانت (حياة) متدربة تمريض بالمستشفى العسكرى، أى أنها فى فترة تدريب حتى تصبح ضابط فنى تمريض، كانت فتاة رقيقة جدا ذات بشرة شديدة البياض وعينين تميلان للأخضر الفاتح، وشعرها كان بنيًا فاتحًا تجمعه خلف رأسها برباط، كانت مثلى بعيدة عن أهلها ..

من نظرتى الأولى لها شعرت أنى أعرفها منذ وقت طويل، انجذبت لها وصرت أنتظر رؤيتها فى الطرقات بين الحين والآخر، وكنت أتلمس الفرص حتى أتكلم معها..

كانت فى البداية لا تنظر إلى مطلقاً، ولكن بمرور الوقت رأتنى كثيراً وأنا أحاول لفت إنتباهها، وفى إحدى المرات بينما كانت تحمل بعض الأدوات الطبية وتمر من أمامى وكنت أنا مكلفًا بحراسة هذا الطابق، نظرت إلى نظرة طويلة وابتسمت وحيتنى

بإيماءة من رأسها .. لم أتمالك نفسي ولم أفعل أي شيء سوى أني ظللت محدقاً بها فقط ...
وعند خروجها بعد أن وضعت الأدوات في إحدى الغرف خرجت ومرت بجانبي ولأول مرة أسمع صوتها وهي تقول :
- السلام عليكم ...
فتلعثمت قليلاً قبل أن أرد التحية قائلاً بسرعة :
- وعليكم السلام ورحمة الله ... صباح الفل ..
فنظرت لي من خلف كتفها وابتسمت .. رحلت وتركت قلبي يلهث وراءها ..

بمرور الوقت تعارفنا أكثر، كان كلامنا قليلاً، ولكنه كان مركزاً جداً، كنت معتاد الحراسة في الفترة الصباحية وهي كانت تعمل صباحاً أيضاً، وكان هذا من حسن حظي أن أراها دائماً، كنت أرى فيها كل شيء جميلاً، وأصبحت أحلم بأن حياتي القادمة لن تكتمل إلا بوجودها فيها.

أصبحت (حياة) كل ما يشغلني، قبل ذلك كنت أحلم بالسفر خارجاً بعد انتهاء خدمتي العسكرية، أما بعدما قابلتها قررت أني لن أتخلى عنها وسأعمل على أن تكون لي، كانت رقيقة المشاعر، تفهمني دون أن أتكلم، حكت لي الكثير عن حياتها وعن شغفها بآلة الأوكرديون للموسيقية، لقد كانت تعزف عليها أثناء دراستها في المدرسة، ولكنها أحبتها جدا، وكانت وقتها تدخر مبلغاً من المال لتشتري واحداً جديداً .

قررت وقتها أن أدخر أنا ايضاً لكى أساعدها فى شراء آلتها المفضلة ... قررت ذلك دون علمها بالطبع .
كنت حسن السيرة بين زملائى وكانوا يحبوننى ويحكون لى أسرارهم دائما ويأخذون منى المشورة فى أمورهم، وكنت على علاقة طيبة أيضاً بالضباط، وكان أحدهم يسمى (أدهم) كان زميلاً لي فى الجامعة، ولكنه دخل الجيش كضابط فى الفريق الاحتياطى للجيش وأنا التحقت بالجيش كفرد عسكرى، كنا أحياناً نتبادل الأحاديث ولكن بحكم مركزه لم يكن يتكلم معى كثيراً أثناء الخدمة، وكنت مقدراً لموقفه.

وكان هناك أحد الضباط الذى يتسم بسوء المعاملة حتى بين أقرانه من الضباط، كان اسمه (زيدان)، كان سيء الطباع وحاد المزاج، ودائما ما يصيح فيمن أقل منه من العساكر إثباتاً لقوته وسطوته عليهم، بالطبع كنت أتجنب التعامل معه

وفى يوم من الأيام بينما كنت أقف فى دوام حراستى مرت بي (حياتى) وأعطتنى بعض الشطائر التى أعدتها لى وهى تقول مبتسمة :

- أعددتها لك بيدى .. ووضعت لك قطع الجبن التى تحبها عليها ..

أخذتها منها لائماً نفسى، فقد ذكرت لها سابقاً أنى أحب هذا النوع من الشطائر وقلت :

- لماذ كلفّت نفسك إعدادهم يا (حياة)، إنه كثير ..

- لن أستطيع رؤيتك تقول لى أنك تحب شيئاً ما ولا أعده لك..
- (حياة) .... أنت جميلة جدا ..

ابتسمت فى خجل وهى تقول :

- كفاك هذا الكلام يا (زيد) .. قلت لك قبل ذلك أنى سأغادر إن قلت ذلك مرة أخرى ..
- بصراحة لا أستطيع أن أراك ولا أعبر لك عما أكنه لك ..
- وأنا أيضا يا زيد ..
- أنت ماذا ؟
- قلت لك كفى ...
- كم أتمنى أن أنهى خدمتى هذه وسأتوجه إلى منزلكم بأقصى سرعة ..
- ولماذا تأتى إلى منزلنا ...
- لا أبداً .. ولكنى وجدت جوهرة ثمينة عند أبيك وأود لو أسرقها منه ..

ضحكت (حياة) وهى تضع الحقيبة التى كان بها الشطائر بجانبى وهى تقول :

- ترى من تكون هذه الجوهرة الثمينة إذن ..

فى هذا الوقت كان يمر(زيدان) وقبل أن أرد عليها وجدته يقف أمامنا مباشرة وهو يقول :

- ما هذه السفالة .. التزم مكانك يا عسكرى .. وأنت تفضلى من هنا ..

استشطت غضباً وكنت أريد أن أفتك به ولكنى كظمت غيظى وقلت فى صيحة مكتومة :

- إنها خطيبتى يا أفندم ... وكانت تأتينى ببعض الأشياء التى طلبتها منها ..

فصاح بى مرة واحدة :

- خطيبتك هذه عند أبيك ... أما هنا فلا مجال للسفالة وقلة الحياء ...

أرادت (حياة) أن تتحدث وقالت بسرعة :

- ياأفندم حضرتك..

فقاطعها بقوة :

- اخرسى واذهبى من هنا ..

كنت سأجن من كلامه، وخصوصاً أنه أخطأ فى حق أبى المتوفى، وأخطأ فى حق حبيبتى، ياله من رداء أرتديه ويمنعنى أن أحرك ساكناً ..

وقفت (حياة) مذهولة من كلامه، لحظات وقالت فى خجل:

- بعد إذنك يا أفندم ...

ورحلت وتركتنا؛ وظل هو ينظر إلىّ منتظرًا منّي ردة فعل، وعندما لم يجد ابتسم فى سخرية وتركنى وهو يختال فى غرور

عشت أيامًا لا يأتيها القمر، كنت تقريباً لا أنام، مكسور النفس، عكر المزاج، ولا تمر علىّ لحظة إلا وأتصور نفسى أمسك برقبة (زيدان) وأنتزعها من جسده، لقد كان إنسانًا غاية فى الانحطاط، وبسببه لم أقدر على رؤية (حياة) لعدة أيام، كنت أتذرع بأى شىء حتى أغير مكان حراستى كى لا أقابلها وأواجهها.

وفى أحد الأيام قررت الذهاب لصديقى القديم (أدهم) لأقص عليه ما بدر من (زيدان)، كان فى أحد المكاتب فدخلت عليه محيياً إياه ..

- صباح الخير يا (أدهم)..

حدثته وقتها ينظر حوله فلم يعتد منذ فترة أن يناديه عسكرى باسمه دون لقب فاستأنفت قائلاً:

- أرجو المعذرة يا (أدهم) باشا ..

قام من جلسته وهو يتصنع ابتسامة قائلاً :

- لا تقل ذلك يا (زيد) فنحن أصدقاء ...

- (أدهم) أنت تعلم أن كل من فى المستشفى وحتى قبل ذلك عندما كنا فى الجامعة، أن لا أحد يشكو منى فى شىء، وإنى دائماً حسن السلوك وأتعامل مع كل الناس باحترام ولا أقلل من شأن أحد مهما كان

- مفهوم يا (زيد) .. أنت طوال عمرك على خلق.

- ولكنى أكاد أجن من الضابط (زيدان) لقد تكلم معى بطريقة مهينة جدا أنا وخطيبى..

اااه منذ يومين ... منذ يوسين وأنا فى مقر خدمتى .

- (زيدان) ؟ ماذا قال لك ؟

شاء القدر أن يأتى المدعو (زيدان) فى نفس اللحظة التى ذُكر فيها اسمه ، فبادرنا قائلاً :

- ماذا به ؟

أشار إلى أن أستأنف قائلاً :

- أكمل حديثك .. لماذا توقفت ... ماذا فعلك لك (زيدان) يا حبيبى ..

لم أشـأ أن أرُدّ عليـه، وقلـت بصـوت ثابـت وأنـا أنظـر إلى (أدهم):

- كنت أتكلم مع (أدهم) ولم أوجه الكلام....

صرخ فيّ مقاطعاً :

- اسمه حضرة الضابط (أدهم) ... هل نسيت من أنت؟

هنا تدخل (أدهم) وقال مهدئاً لحدة الحوار ..

- اجلـس يـا (زيـدان) لقـد كنـا زمـلاء أيـام الجامعـة وكنـا دائماً...

قاطعه (زيدان) قائلاً بحدة...

- من فضلك يا (أدهم) .. لا تتساهل مع هؤلاء ..

ونظر لى باحتقار وقال :

- انصراف يا عسكرى ...

ثرت فيه واندفعت نحوه وأنا غاضب :

- لماذا تعاملنى هكذا؟ أنا لا أطلب منك صدقة ..

قام (أدهم) من مكانه وأمسك بى وقال معنفاً إياى :

- اخرج الآن يا (زيد) .. أنت تتكلم مع ضابط ..

وجـذبنى مـن يـدى لأخـرج مـن الغرفـة وكـان (زيـدان) ينظـر إلىّ ببرود وعندما هممت بالخروج قال بصوت ملء الغرفة :

- انتظر هنا ....

وتقدم نحوى وبكل قوته صفعنى على وجهى وهو يقول :

- تتحول مكتب يا عسكرى ....

(كان يقصد أن أذهب لمكتب التحقيقات ليوقعوا علىّ العقوبة)

غـاب القمـر أكثـر وأصـبحت الليـالى شـديدة السـواد وأنـا فى سـجن الوحـدة أقضـى فـترة العقوبـة لمـدة أسـبوعين، وفى أحـد أيـام

الأسبوع الأول أخبرنى الحارس بأن هناك زيارة لى، توقعت أن تكون (حياة) ولكنى لم أكن أريدها أن ترانى بهذا الشكل، ولم أرد أن أعرّضها لأية متاعب، أو أن يقال عنها ما يسوؤها ..

خرجت مع الحارس ووجدت (أدهم) بانتظارى .. ظللت أنظر إليه دون أن أتحدث، فبادرنى قائلاً:

- كيف حالك يا (زيد) ؟

قلت له مبتسماً بسخرية :

- بأحسن حال .. ألا ترى ذلك؟
- (زيد) ..أرجوك اسمعنى جيداً .. أنت إنسان جيد وأنا أعلم كل شىء عنك ولكن الجيش له قواعد خاصة ..
- قواعد خاصة بالإهانة وسوء معاملة الجنود أليس كذلك؟... نحن هنا باسم خدمة الوطن وليس خدمتكم الشخصية ... كيف تتوقعون لو حدثت حرب مثلاً أن يحارب الجندى-وكله اعتزاز ببلده وهو فى الأساس يهان بها ...
- (زيد)... أنت تحمّل الموضوع أكثر من حجمه ...ما بال كل ما تقول من خدمة الوطن وما إلى ذلك بشخص أنانى أخطأ فى حقك مثلما يحدث فى أى مكان، (زيدان) مثله مثل أى شخص سيء فى إدارة مكان ما...
- هذا الشخص ينبغى أن ينال العقاب وليس أنا ..
- إن الأمور لا تسير بهذه الطريقة يا (زيد) ، أنت تعلم جيداً أنه فى رتبة عالية، هو أعلى منى وله سلطة علىّ أيضاً ولا ينبغى أن أعارض أمرًا له.

- نحن لسنا عبيداً ..هناك قانون يحكم أليس كذلك؟!
- نعم هناك قانون .. ولكن هناك من يتحكم أيضاً فى القانون .. إنما لعبة كبيرة يا صديقى ولا ينبغى أن تتدخل بها .. أرجوك يا (زيد) اعمل على أن تخرج وتقضى فترة خدمتك فى سلام.

صحت به وأنا فى قمة غضبي :

- لقد كنت أقضيها بالفعل فى سلام .... وأنت تشهد على ذلك بنفسك، أرأيتنى افتعلت مشكلة من قبل ذلك .. أرأيتنى أتشاجر مع أى أحد ... لم أكن سوى فرد يؤدى خدمته فى سلام.
- حسناً يا (زيد) أنا أعلم كل ذلك، ولكنى أتكلم بعدما تقضى العقوبة وتخرج، ومن حسن حظك أن (زيدان) لن يأتى فى الفترة الصباحية فى الوقت القريب، وسيعمل فى الفترة المسائية..
- من حسن حظه هو أن ابتعد عنى ...
- أريدك أن تعلم يا(زيد) أنى بجانبك ، وإن شاء الله ستكمل خدمتك وتخرج لحياتك بسلام.
- أشكرك يا (أدهم)...

واستدرت لأواجه الحارس الذى وقف ينتظرنى، وقلت له:

- هيا بنا ، لقد انتهت الزيارة ..

{10}

قضيت فترة العقوبة وخرجت بعد أسبوعين، كنت أشتاق لرؤية (حياة)، أردت أن أبتعد فعلاً عن أى مشكلات، رجعت لوحدتى واستلمت مهامى من جديد، ولكنى لم أجدها ... لم أجد (حياة)، بالطبع لم يكن مسموحاً لنا باستخدام الهاتف المحمول فى الخدمة العسكرية، وكنت أحمل دائماً خط هاتفى المحمول معى وأستغل فرصة وجود أى هاتف لأتكلم منه، كان من الممكن أن أذهب ل (أدهم) وأطلب منه استعارة هاتفه ولكنى لم أرد ذلك ..

كنت سأجن .. أين ذهبت (حياه)؟... هل حدث لها مكروه؟ هل تركت العمل بالمستشفى ؟
انتظرتها قرابة الثلاثة أيام بلا أى أخبار، ووجدت زميلة لها، كُنت أحياناً أراهم معاً، فسألتها عن مكانها فأخبرتنى أن (حياة) تعمل بالفترة الليلية منذ حوالى ثلاثة أسابيع ...

لم أجد بداً من الذهاب إلى (أدهم) لأطلب منه نقلى فى الخدمة المسائية .. رفض فى بادىء الأمر وظن أنى سأذهب لكى أدبر أمراً ما ل(زيدان)، ولكنى أخبرته بكل شىء عن (حياة) وحبى لها وأنى أريد الاطمئنان عليها، فوافق أخيراً ..
كنت قد أدخرت مبلغاً من المال فاستأذنت للخروج وابتعت (أوكرديون) بنفس المواصفات التى أخبرتنى بها (حياة)، كنت أريد مفاجأتها ...

وفى أول يوم لى فى الخدمة الليلية ....
حيث كان منوطاً بى حراسة أحد الطوابق، كل ما كان يشغل بالى هو رؤية حبيبتى (حياة)، كنت أشتاق لها بشدة ...
.وحيثما كنت أقف سمعت صوتاً مكتوماً فى إحدى ممرات العنابر، فأخذت أتجول وأنا أبحث عن مصدر هذا الصوت، ووجدته صادراً من إحدى الحجرات، راقبت الحجرة قليلاً إلى أن وجدت بابها يفتح ورأيت من يخرج مولياً ظهره لى ولم يرنى.... لقد كان (زيدان)، فتواريت وأنا أختلس النظر من خلف الحائط فوجدته يلتفت ويهم بالخروج وهو يشد سحّاب بنطاله .. [وهذا ما ذكرنى به الرجل فى المسجد]...

مر (زيدان) بجانبى وأنا متخفٍ، وأخذت الأفكار تراودنى وأنا فى هذه الحالة وسرعان ما وجدت (حياة) تخرج هى الأخرى من بعده من نفس الحجرة وهى تهذب هندامها ...
كنت سأصاب بالجنون وانقضضت عليها صافعاً إياها على وجهها وأسبها :

- يا عاهرة ... بماذا أغراك هذا السافل؟

.ودفعتها فى عنف إلى داخل الحجرة مرة أخرى ...
كانت مشدوهة من رؤيتى، ثم مفجوعة من رؤيتى لها فى هذا الموقف، فحاولت الكلام :

- (زيد) ..أرجوك ... أنت لا تعلم شيئًا ..أرجوك.
- لقد رأيت كل شىء يا فاجرة ..

قلتها صائحاً فيها .وتركتها وأنا أجرى نحو السافل (زيدان)، كان لابد لى من قتله هذه الليلة وأخذت سلاحى وعدوت خلفه،

وصرخت (حياة) تنادى عليّ ولم أسمع لها، فهَرولت خلفى إلى أن خرجنا من المبنى وأنا مازلت أحاول اللحاق بالكلب (زيدان)، ورأيته أمامي بأكثر من ثلاثة أمتار فى ساحة المستشفى الواسعة وعلى صوت صراخ (حياة) وصوت شد الأجزاء من سلاحي تنبه هو وبسرعة هجم عليّ وأطاح بسلاحي أرضا ...

فى وسط ساحة المستشفى ليلاً وعلى أصوات من استيقظوا والأضواء العالية التى أضيأت كنت أنا و (زيدان) ممسكين بعضنا البعض، وجمعت قبضتى وبكل ما أوتيت من قوة صدرتها له فى وجهه فأصابته، وحين أردت أن أكيل له الأخرى فلت من تحت ذراعى وأمسكنى من الخلف، وبركبته ركلنى فى معدتى فتأوهت، ولم يمهلنى حتى صدّر لى ضربة أخرى بركبته فى وجهى، ووتّد قدمه بجانب قدمي ودار بجسدى كله فأصبحت معلقاً فى الهواء للحظات وسقطت على ظهرى متألماً.. كل هذا فى لحظات .....

وقف أمامى (زيدان) وهو يتحقق من ملامحى وبصق بعض الدماء التى تجمعت تحت شفتيه، وقال وهو يبتسم:

- آه ... حبيب القلب قد وصل ..

ونظر إلى (حياة) التى شاهدت كل شىء وظلت تصرخ وتبكى ..

وهجم عليّ مرة أخرى وأنا على الأرض وأمسكنى من سترتى ورفعنى وهو يقول :

- سأريك كيفية التعامل مع ضابط يا ابن الكلب ..

تقدمت إليه (حياة) بسرعة وهى تمسكه وتبعده عنى وتقول:

- أتركه أرجوك ...

فصفعها هى الأخرى فوقعت على الأرض وهى منهارة...

رفعنى وهو يجرنى وتجمعت حولنا باقى الوحدة من ضباط وعساكر وبعض أطباء المستشفى، ودفعنى إلى أحد العساكر الواقفين وهو يقول :

- محاكمة عسكرية ....

إخذونى...أخذونى وأنا منهك نفسياً وجسدياً...

****

أتذكر الأن كل شىء ... أتذكر (حياة) وخيانتها لى .. أتذكر (زيدان) الذى دمر حياتى ... ولكن..

كان هناك شىء ما ... أتذكره الآن بوضوح ...

{11}

قرابة العام فى السجن الحربى كانت كفيلة أن تحولنى إلى شخص آخر، كل من أعرفهم تخلوا عنى، حتى (أدهم) صديق الدراسة القديم تخلى عنى ولم يرد رؤيتى مرة ثانية، بالطبع ظن أننى خالفت أوامره وأننى كنت أريد تغيير وقت خدمتى حتى أنال من (زيدان) وأنتقم منه.

عام من العزله ..كنت تقريباً لا أرى الشمس إلا يومين فى الأسبوع وفى كل مرة حوالى 3 ساعات عندما يخرجوننا قليلاً فى ساحة السجن الكبيرة، كانت هذه أمنيتى طوال فترة السجن، أن أصبر فى كل مرة انتظاراً لليوم الذى أرى فيه النور من جديد، لم يعد يهمنى أى شىء عن أى شىء، كل ما كان يهمنى أن أخرج من الظلام الذى صرت جزءاً منه .

فى إحدى المرات أخرجونى وكنت أتطلع شوقاً ليوم الخروج، ووجدتهم يأخذوننى لمكان آخر غير الساحة التى اعتدت أن أخرج إليها، بعد عبورنا عدة ممرات فى أروقة السجن رمونى فى حجرة واسعة عتيقة بها قائم كبير أشبه بحرف (T) فى اللغة الإنجليزية، مع تقوس نصف دائرى فى المنتصف، كان هذا هو (الغولة) أو كما كانوا يطلقون عليه ...

نزعوا عنى ملابسى و ربطونى به ودخل شخص لم أتبين ملامحه فقد كان خلفى، وأخرج سوطاً عملاقاً وأخذ يمزقنى دهراً..

ثم أمرهم بفك وثاقى وقال بعد أن هم بالرحيل :

- هذا لتتعلم كيف تتحدث مع ضابط ....

أصبحت بلا حياة، فكرت فى الانتحار ولكن لم يتركوا لنا أي وسيلة لنموت بها، فكان المراد هنا هو التعذيب النفسى الذى هو أسوأ بكثير من التعذيب الجسدى ...

وخرجت أخيراً وقد أصبحت إنساناً خاوياً، بلا أى شىء فى صدرى، حتى منطق الانتقام تبدد بداخلى، لا جدوى من أى شىء ..

ورجعت إلى وحدتى صباحاً، لم يكن هناك أحد غيرى فى الحجرة الواسعة، تقدمت ببطء نحو سريرى ورميت عليه المخلة (حقيبة الملابس بالجيش) ....

لا جدوى من أى شىء...

أخذت أرددها فى نفسى ... قمت وفتحت خزانة الملابس الخاصة بى ووجدته هناك يقبع فى أسفلها ... الأوكرديون الذى ابتعته ل(حياة)، كان بانتظارى، ظللت أنظر إليه وأنا أستعيد كل ذكرى لى بشأنه، فبعد أن كان يمثل لى كل شىء جميل فى الدنيا، أصبحت أرى به وجه (حياة) الخائنة، ووجه (زيدان) ووجه (أدهم) أيضاً، فأخرجته وبكل عزمى ألقيته على الأرض فسقط بشدة متصدعاً، فحملته مرة أخرى وأخذت أقذفه عدة مرات بعنف وكأنما أخرج كل الطاقة السلبية التى بداخلى فى

هـذا الأوكرديـون، وأخـذت أركلـه وأطـيح بـه عـدة مـرات حـتى تبـدد وتلاشت معالمه ....

وجلست منهكاً على الأرض بجانبه وأنا أنظر إليه ..

وعقــدت حــاجبي فى اسـتغراب عنـدما وجـدت لفافـة فى حقيبـة بلاسـتيكية كانـت محشـوة بداخلـه، وعنـدما تم تـدميره ظهـرت وكأن هناك من خبأها بداخله ..

مـددت يـدى فى بطـيء وأنـا أتحسـس هـذه اللفافـة ثم أخرجتهـا مـن بـين أحشـاء الأوكرديـون المطـروح أرضـاً، وفتحـت اللفافـة البلاسـتيكية لأجـد بـداخلها ورقـة مطويـة، وسـقط مـن اللفافـة أيضاً كارت ذاكرة هاتف محمول .

لم أسـتوعب مـا يحـدث وقتهـا، ونظـرت حـولى لأتـيقن أن لا أحـد يـراقبنى وفتحـت الورقـة المطويـة، فقـد كانـت خطابًـا ... خطابًـا من (حياة) ...

{12}

"كنت أعلم أنك ستدمره .. لك كل الحق يا (زيد) "
"لم أكن أعلم أنك إنسان بهذا القدر من الجمال ...فعند دخولك السجن فعلت محاولات شبه مستحيلة حتى أترك لك هذا الخطاب فى خزانة ملابسك، ووجدت الأوكرديون وأعلم أنك ابتعته لى، وأنا لا أستحقه بأية حال، فقررت أن أخبئ خطابى لك بداخله .."

****

كانت هذه قصاصة صغيرة من الورق بداخل الورقة المطوية ، وواضح أنها كتبتها بسرعة، أغلب الظن أنها كتبتها قبل أن تخبيء الخطاب الأصلى فى الأوكرديون، وفضضت الورقة الكبيرة لأجد بها ما يلى ..

****

لا أنتظر منك سوى أن تصدقنى .. اسمع قصتى ولك الحكم بعد ذلك ... واعلم للمرة الثانية، لا أريد منك أى شىء ولست ملتزماً أمامى بأى شىء .. صدقنى فقط أرجوك ..
بالطبع تعرف (زيدان) هذا القذر السادى المريض، لعلك تعرف أيضاً أن أباه ومعظم أفراد عائلته فى الجيش، هو تقريباً

يتحكم فى كل شىء فى الوحدة أو أى مكان يذهب إليه، ويتحكم فينا بالطبع .

كنت أعمل بالفترة الصباحية كما تعلم، وكان هو دائم التحرش بكل الفتيات لفظياً وبكل بجاحة على مرأى ومسمع من الجميع، كانت بعض المتدربات يتجاوبن معه فبعضهن عاهرات، وكان هناك من يتجاوبن معه خوفاً منه فقط، أما أنا فكنت أتجنبه تماماً حتى لو قال كلاماً بذيئاً موجهًا إليّ، كنت أتصنع عدم سماعى شىء ....

وهكذا على هذا المنوال إلى أن رآنا معاً، كنت أريد أن تنشق الأرض وتبتلعنى، وأعجبت جداً من ردك عليه عندما قلت له "إنها خطيبتى".

كم أردت أن تكون خطيبين بشكل رسمى يا(زيد)، كم أردت أن أكون زوجتك، كنت أنت الوحيد الذي تملأ عيني وكنت فخورة بك ......

آسفة يا (زيد) عنى هذه الكلمات فقد خرجت رغماً عنى، فقد قلت لك سابقاً أنا لا أستحق ذلك ..

المهم فى الموضوع أنى قررت الابتعاد عنه وعن العمل معه فى مكان واحد، فقررت العمل فى الفترة المسائية، وطلبت ذلك من الإدارة ووافقوا على طلبى، كنت أريد إخبارك بذلك ولكنى لم أكن أراك، حتى فى الأيام التى أعتد رؤيتك فيها تحرس الطابق الرابع لم تكن هناك فظننت أنك لا تريد رؤيتى ..

وبعد أيام من العمل بالفترة المسائية وجدت هذا الشيطان متمثلاً أمامى مرة أخرى، وعرفت أنه أراد العمل بالفترة المسائية أيضاً، لم أكن أعرف نيته من قبل، ولكنها وضحت عندما

رأيته أكثر من مرة يأخذ الفتيات بإرادتهن أو رغماً عنهن فى إحدى الحجرات التى خصصها له ويمارس معهن الجنس بطرق سادية مجنونة، كل هذا كان يحدث سراً، ومن يفعل بهن ذلك من الفتيات لم يجرؤن على ذكره، ولكن الجميع كان يعلم .

أنت تعلم أننا كمتدربات لابد وأن نكون عذراوات، وفى إحدى المرات كانت هناك فتاة ريفية بسيطة فعل بها مثلما فعل بالأخريات ولكنها لم ترد أن تكمل حياتها بوصمة عار ليست هى المتسببة بها فانتحرت، وعرفنا بعدها أنها أحرقت نفسها فى فرن المطبخ ..

كان سهلاً عليه أن يستخرج شهادات طبية للفتيات تثبت أن فقدان العذرية كان نتيجة التمرينات الرياضية الشاقة .. كان سهلاً عليه كل شيء ..

وفى يوم من الأيام أمرنى أن أحضر شيئاً ما من إحدى الغرف، فذهبت مسرعة دون أن أنطق بكلمة؛ ودخلت الحجرة وهممت بإحضار ما أمر به، ووجدت أن باب الغرفة يُفتح ودخل هو من بعدى وأغلق الباب خلفه، وبكل بجاحة أمرنى بخلع ملابسى ...

لم أستطع وقتها أن أبتلع ريقى خوفاً منه، ولم أردّ ولم أفعل أى شيء، ولكنه تقدم نحوى وبدأ فى نزع ملابسى بنفسه، فنزعت نفسى منه بسرعة وأنا غير مصدقة لما يحدث، فأخذ يعنفنى ومزق ملابسى، هممت بالصراخ ولكنه كان أقوى منى بكثير فكمم فمي وجردنى من ملابسى كاملة، وأخذ يقول لى :

– ستفعلين ما آمرك به .. برغبتك أو بدونها.... فماذا

تفضلين ؟

كنت سأموت من الخوف ولم أقوَ على رده، لم أقدر على فعل أي شيء عندما وجدته بداخلي فارتخت مفاصلي وأنا ارتجف..

بعدما انتهى تركني على الأرض وقام وهو يبتسم ابتسامته الشيطانية، أخبرني بأنه استمتع بي وأنه سيلبي كل طلباتي طالما أطيع أوامره . كانت هناك قطرات من ما يبدو ماء جافًا على هذا الخطاب.إنه ليس ماء .. إنه دموعها وهي تكتب هذا الخطاب.. كانت هناك ناراً تشتعل في رأسي من ما قرأت وتبين لي.

ما أتعسك يا حبيبتي ... لقد ظلمتك .

وأخذت أستكمل باقي الخطاب، الذي لاحظت أن خطها به بدا متعرجاً وهي تقول.

(زيد) يا حبيبي أنا لا أطلب منك أي شيء، ولكن كل هذا كان بغير إرادتي ..

وإذا أردت أن تستوثق أكثر مما قلت، فستجد هنا مع الخطاب ذاكرة هاتفي المحمول، فقد سجلت لهذا الحيوان صوتاً في إحدى المرات وكنت أتذرع بأني خائفة من أهلي عندما يكتشفوا أني لست عذراء، فكان هو يطمئنني بأنه سيتخذ التدابير اللازمة لاستخراج شهادة لي تثبت أني فقدت عذريتي بطريق الخطأ عند قيامي بتمارين رياضية شاقة، استمع لهذا التسجيل لتتأكد مما قلت.

حبيبي (زيد) أفتقدك بشدة.

{13}

كان الغضب يتملكني، والدماء تغلى فى رأسى، لن أهدأ حتى أقتلع أمعاءك يا (زيدان)، لن يهنأ لى بال حتى أمزقك إرباً ..
سأجن من كثرة التفكير، ماذا أفعل لكى أرد شرفى وشرف حبيبتى ..
لن أتركك يا (زيدان)، أقسم أنى لن أتركك أبداً ..
وكان هناك صوت بداخلى يمنعنى عن أى تصرف متهور .. نعم ينبغى ألا أتهور هذه المرة، لابد من استخدام العقل، لا مجال للمواجهة واستخدام القوة، وإنما لابد أن أوقع بك، لابد أن أستخدم حيلة ما .. لابد لى من مساعدة، لن أقدر عليه وحدى .
(أدهم) ... نعم ليس أمامى سوى اللجوء إليه ..

فى مكتب (أدهم) وبعد أن كان يرفض مقابلتى، جلست أمامه وقصصت عليه كل شيء، اضطررت أن أريه خطاب (حياة) وأسمعه التسجيل الصوتى ل (زيدان).
جلس واجماً أمامى دون أن ينطق وقال بعد صمت طويل :

- كنت دائما ما أراه إنساناً قذراً لا يستحق الزى الذى يرتديه، ولكنى لم أتصور أن تتطور وساخته إلى هذا .
- أرجوك يا (أدهم) لابد أن نفعل شيئاً، فأنا أكاد أموت غيظاً وشيطانى يصور لى أموراً بشعة حتماً ستودى بى إلى الهلاك، ولكنها ستبرد نارى.

- لا يا (زيد)، أنا الذى أرجوك أن تعمل العقل، انتظر قليلاً ..

وقام من جلسته، وسار ناحية باب المكتب وفتحه ونظر خارجاً ليطمئن أن لا أحد يتنصّت علينا، ورجع إليّ وهو يقول:

- استمع لى جيداً، لن أستطيع عمل أى شىء لك الآن إلا أن أبلغ القيادة العسكرية عن أفعاله، وننتظر ما سيأمرون به .
- لا يا (أدهم) لا تفعل ذلك، فحتماً سيبلغه أحدهم وينبهه، ألا تدرى من يكون ؟
- عندك حق، إذن ماذا تنوى ؟
- ستساعدنى فى قتله ...
- ماذا تقول يا معتوه؟!! لولا أنى أعرفك من زمن لأبلغت عنك الآن ووضعتك بالسجن .
- أتضعنى بالسجن لأنى أريد أن أبرد نارى؟ أتضعنى بالسجن لأنى أريد أن أسترد شرفى وشرف خطيبتى وشرف كل ضحاياه؟!!
- (زيد) أنا أقدّر موقفك جيداً، ولكن استمع لى ... بالتأكيد لو حصل مكروه ل (زيدان) فإن أول شخص سيشتبهون به هو أنت، بالإضافة إلى أن موته لن يحل أية مشكلة، فهناك بنات لن يحصلن على حقهن فى محاكمته ورد شرفهن ..
- محاكمته؟! بأى قانون يا (أدهم)؟ أنسيت ما قلته لى من قبل بأن هناك من يتحكم بالقانون ..

ظل (أدهم) ينظر لى دون أن ينطق فاستأنفت قائلا له :

- لن يأتيني القانون بحقى يا (أدهم)، ولكننى سآتى به ..
- اسمع يا زيد .. لن أساعدك فى شىء من هذا، أقصى ما يمكن لى عمله لأجل الأيام الخوالى فقط أن أتغاضى عن ما سمعته منك الآن .
- هذا ما توقعته منك .. آسف على إزعاجك ...

وهممت بالخروج، وما إن وصلت للباب حتى استوقفنى منادياً :

- (زيد) .. انتظر ..

وقفت صامتاً منتظراً محاضرة أخرى فى الأخلاق فاستأنف هو قائلاً :

- سأساعدك يا (زيد) .. ولكن فى القبض عليه فقط.. بشرط أن نتحرك معاً فى الليل .

لم أجد بداً من الموافقة على طلبه، على الأقل هو تعهد بمساعدتى ..

****

لم يغمض لى جفن حتى المساء من هذا اليوم، وخرجت متسللاً من غرفتى حتى وصلت إلى مكان عمل (حياة)، رأيتها من بعيد، لقد تغيرت كثيراً، فبعد أن كانت الفتاة الرقيقة التى تطير وتمتلك رشاقة العصافير، أصبحت كالوردة الذابلة، كانت تتحرك بحركة آلية خالية من النبض، كانت وحدها فتسللت إليها ووقفت منرة واحدة أمامها، كنت أطول قامة منها،

وعندما رأتنى أولاً لم تفاجأ، وأغلب الظن أنها حسبتنى أحد الضباط أو حتى ..... لا أريد ذكر اسمه .

وما إن رفعت بصرها ورأتنى حتى رجعت لها الروح وتهللت، قمت باحتضانها بين ذراعى حتى كدت أن أعتصرها وأنا أقول لها :

- ساحينى يا حبيبتى ...

نظرت إلى وهى بين ذراعى وقد شبكت يديها حولى بقوة وقالت :

- أسامحك ؟! بل سامحنى أنت يا حبيبى ... لا أصدق أنك هنا الآن معى .

وانهمرت الدموع من عينيها وأغرقت وجهها فى صدرى، واستأنفت تقول :

- لا أصدق أنك هنا .. لابد أننى أحلم .

أمسكت برأسها بكلتا يدى وطبعت قبلة على جبينها فأغمضت عينيها، ولم تتركنى بل ظلت ممسكة بى وظلت تردد:

- لا أريد شيئاً سوى ذلك يا (زيد) .. يكفينى حضنك وحبك .. لا تتخيل كيف كانت حياتى بدونك يا حبيبى ..

- لن أتركك أبداً يا حبيبتى.. ولكن وقبل كل شيء لابد أن أنتقم من ابن الكلب الذى فعل هذا بك .

- أرجوك يا(زيد) كفى ما حدث لك بسببه، أرجوك، أتوسل إليك ألا تفعل شيئًا وكفى ما حدث، وحسبنا الله ..

- لا تقلقى يا حبيبتى ... لقد اتفقت مع أحد الضباط للإيقاع به .
- أحد الضباط ؟ من يكون ؟ أرجوك يا (زيد) لا تثق بأحد ..
- قلت لك لا تقلقى، أريد منك أن تستأنفى عملك بشكل طبيعى فقط، والليلة بإذن الله ستكون آخر ليلة له هنا .

****

جاء (أدهم) فى المكان المتفق عليه فى أحد أركان المستشفى بجانب أحد أسوارها، هو واثنين آخرين، كانوا ضخام الجثة ويبدو أنهم ضباط أيضاً، تقدمت إليهم بحرص فبادرنى أدهم قائلاً وهو يشير إليهم :

- النقيب (حسام)، والرائد (منير) ..

وأشار إلىّ وقال لهم :

- (زيد) الذى أخبرتكم عنه صباحاً ..

كنت أنظر إليه متوجسًا وأتلفت حولى، فاستأنف قائلاً :

- لا تخف يا (زيد).. لقد أفهمتهم كل شىء، وسنساعدك فيما اتفقنا عليه ..

قال النقيب (حسام) :

- ولكننا لا نريد أى تهور من ناحيتك .. لا ترتكب أى حماقة ..

أشرت له برأسى موافقة على كلامه، فقال (أدهم) لى:

- أين هو الآن ؟

- إن مكتبه بالطابق الرابع، والحجرة الذى دخلها مع ....، الحجرة التى اعتاد دخولها فى نفس الطابق أيضاً.
- إذن هيا بنا ..

وتوجهنا متسللين من سلم الطوارئ إلى أن وصلنا للطابق الرابع ودخل النقيب (حسام) ومن بعده الرائد (منير) وأدخلنى ثم قال للنقيب (أدهم) :

- انتظرنا هنا يا (أدهم)، فلا بد أن يبقى أحدنا بالخارج، وإذا سمعت أى شىء اتصل بنا على الفور .

وقف (أدهم) قليلاً يراجع هذا التغيير المفاجىء فى الخطة، فقد اتفق معهم على أن يدخلوا ثلاثتهم وأنا، ولكنه وافق والتزم بمكانه خلف باب الطابق الرابع ولم يدخل معنا، وتوجهنا إلى الحجرة التى وصفتها لهم، وكانت مفتوحة، هى فى كل الأحوال تكون مفتوحة إلا لو دخلها (زيدان) فإنه يغلقها من الداخل على فريسته ..

توارينا أنا وهم داخل الحجرة ... لحظات ودخلت (حياة) ومن بعدها (زيدان)، كانت (حياة) تعلم بالخطة، ولكنها تصنعت عدم معرفتها بشيء، وظلت تنظر حولها، وما إن وجدت (زيدان) يغلق الباب، انقضضت عليه أنا كما ينقض الأسد على فريسته وأخذت أكيل له بيدى فى وجهه، وسرعان ما وجدتهم يمسكون بى، لم أستوعب وقتها ما يحدث بالظبط، ولكن كل ما أتذكره أن كل شىء انقلب علىّ، فبعد أن كنت صاحب الحق أصبحت الظالم...

أدركـت أنهـم تواطـأوا مـع (زيـدان) للإيقـاع بي، وبـالطبع لم يعلـم (أدهـم) مـا حـدث لى، أو لعلـه كـان يعلـم... ربي وحـده مـن يعلم ..

ظلـوا يضـربوننى حـتى أجهـزوا علـيّ، وفـتح (زيـدان) البـاب وأمسـك بى الرجلان وأمسك (زيدان) بـ (حياة) يجرها ...

ضـحكات (زيـدان) مازالـت تـتردد بـأذنى وهـو يسـب ويسـخر مـنى، نزلنـا بالمصـعد فوجـدت اثنـين آخـرين يبـدو أنهمـا عسـكريان، وكانـا ممسـكين بـالكلاب وينتظراننـا، كـل هـذا وأنـا أحـاول التفلـت مـنهم وإنقـاذ (حيـاة) ولكـن مـابين لكمـة وركلـة أصـبحت غـير قـادر علـى الحـراك، وأطلـق أحـدهما الكلـب علـيّ فظـل يهـاجمنى بتـوحش وظللـت أصـد هجماتـه بيـدي، فجذبـه صـاحبه مـن سلسـلته بعـد أن سبب لى جرحاً فى ساعدي الأيسر .....

نعـم الجـرح الـذى رآه الحـاج (يوسـف) علـى معصـمى الأيسـر فى الكنيسة .

{14}

كـان الوقـت متـأخراً ولم يكـن يشـعر بنـا أحـد حـين أمسـكوا بى وبـ (حيـاة) وسـاروا بنـا فى ممـرات جانبيـة حـتى وصـلنا إلى المطـبخ الكبـير بالطـابق الأرضـى، همـت (حيـاة) بالصـراخ عنـدما رأت أبـواب المطـبخ الكبـيرة، ولكـن أحـدهم جـذبها مـن رأسـها بعنـف وكمـم فمهـا، أردت الانقضـاض عليـه ولكـن اثنـين مـنهم أمسـكا بى وركلـنى أحـدهم فى ظهـرى فوقعـت علـى وجهـى، وشـعرت بزمجرة الكلاب قريبة من وجهى، إنها كلاب مدربة على القتل..

سـحبونى أنـا و(حيـاة) إلى داخـل المطـبخ، كـل هـذا فى لحظـات، ورأيـت أحـدهم يفـتح صـمام الغـاز فصـرخ الغـاز وهـو يخـرج مـن الأنبـوب فى عنـف، فخرجـوا مسـرعين كلهـم، وأمسـك زيـدان بـ (يـد الهـاون) الحديديـة وكسـر بهـا صـمام الغـاز حـتى لا يغلـق مـرة أخـرى، كنـت منهـك القـوى ولكـن انـدفعت إليـه بسـرعة، ولكـنى لم أدركه حين خرج وأغلق الباب خلفه بقوة ...

انهـارت (حيـاة) ووقعـت علـى الأرض فى حالـة هيسـتيرية، وأخـيراً أسـندت ظهرهـا إلى أحـد الأركـان وضـمت سـاقها إلى صـدرها وهى تبكى وتلتقط بقايا الأكسجين بالغرفة ...

ورحـت أنـا أدور فى الحجـرة وأضـرب يـدى فى البـاب الحديـدى عسـى أن يسـمعنا أحـد ولكـن بـلا جـدوى... مـرت علـىّ لحظـات وأنـا أرى المـوت حـولى ويئسـت وكنـت سأستسـلم لـه، فقد كان الغاز يغمر المكان.

خلعت قميصي وربطته حول وجهي وأخذت في إفاقة (حياة) فقد بدا أنها انهارت وأخذت تتنفس بثقل كبير، وقد انتفخت عروقها وورم وجهها، فتركتها لحظات وأخذت أضرب بكتفي في الباب الحديدي وأصيح لعل أحدًا يسمعنا ولا حياة لمن تنادي .

أدركني التعب وأصبحت لا أرى إلا ضبابًا، ورحت أطيح بالأشياء أمامي في جنون، ما نفعني في هذه اللحظات العصيبة أن نفسي كان طويلاً فقد اختزنته ورحت أبحث عن أي وسيلة للهرب، وكنت كل لحظة أنظر نحو (حياة) فأجدها أسوأ من ذي قبل، ولم يكن بيدي أي حيلة وكل ما كان يصبرني أنني سأجد وسيلة للهرب وأخرجها من هنا، فالأفضل لي أن أكسب كل لحظة ولا أضيعها..

شعرت بإعياء شديد وقلت حركتي .. ولمحت على الأرض (يد الهاون) التي كُسر بها صمام الغاز، لم أكن أدري ماذا سأفعل بها، ولكني زحفت أرضًا حتى وصلت إليها، كنت أعلم أن الباب بحكم الإغلاق فتوجهت نحو الحائط وبشكل عشوائي بدون تفكير أخذت أضرب فيه بكل ما أوتيت من قوة، ومع نزول بعض الأتربة سقط حجر فكان هذا هو الأمل الوحيد لديّ، وأصبحت لا أستنشق إلا الغاز فتحشرج صدري وأصبحت لا أرى، وكانت يداي تعملان في الحائط بشكل ميكانيكي وأنا أحاول ثقب الحائط حتى نخرج من هذه الغرفة، ومع وقوع حجرٍ آخر من الحائط لمحت كابلاً كهربائياً كبيرًا بداخل الحائط.

كانت هذه آخر محاولة لى للهروب .. وتوقفت لحظات عن تكسير الحائط ونظرت إلى (حياة) فوجدتها قد مالت نحو الأرض .. فعرفت أنها أصبحت بلا حياة ...

فنظرت مرة أخرى إلى الحائط وهذا الكابل ولم أجد بداً مما عزمت عليه، ورفعت يدى وبكل قوة أخذت فى قطع هذا الكابل، وبعد لحظات تمزق غطاء الكابل الخارجى وبضربة أخرى منى وخروج شظية من هذا الكابل وجدت المكان يتحول إلى كتلة من اللهب، وحدث انفجار عظيم تهدم على آثره الجدار الذى كنت أحاول ثقبه وأخذنى الأنفجار وأطاح بى.

ما أنقذنى من جهنم أننى كنت ملتصقًا بالحائط، وعند تحطمه دفعتنى النيران خارجاً ....

كان لا يهمنى سوى استنشاق الهواء، ووجدت نفسى معلقاً بالهواء وأنا أهوى إلى أسفل، حاولت عند سقوطى أن أختلس النظر نحو الأسفل ولكن سبقتنى الجاذبية، وشعرت ببرودة عند أطرافى ومن ثم انغمست كلياً فى الماء ونزلت إلى عمق سحيق وقد تبدل كل شىء إلى الأزرق، وسرعان ما أخذت فى العوم إلى أعلى صاعداً إلى السطح حتى خرجت من الماء وأنا أملأ رئتى بالهواء.

{15}

مرت عليّ هذه الذكريات كشريط سينمائى وأخذت أتنهد ألما وعينى تذرف دمعاً بحرقة على ما مضى، لقد تحملت ما لم يتحمله بشر، والمسكينة (حياة) تحملت أكثر منى بكثير، لماذا حدث كل ذلك؟ وما الخطأ الذى فعلته لتحل عليّ كل هذه المصائب ؟

كنت لا أزال واقفًا على كورنيش البحر، فالتفتّ حولى لأجد أن الشوارع ساكنة .. لم يكن أمامى فى هذا الوقت إلا طريق واحد نويت أن أسلكه ..

****

بعد حوالى نصف الساعة كنت على متن قطار للبضائع كان متجهاً نحو المدينة التى أعيش بها، وكان اليوم الجديد يبدأ فى النهوض فى حين بدت الشمس حمراء على جانب الطريق .

ورغم ما أنا به من كرب أخذت أتأمل هذا المنظر البديع من صنع الخالق، وأرحت رأسى للخلف على أحد الأجولة، وأنا أواسى نفسى بأنه مهما طال الليل فلابد من بزوغ الفجر، وأعطتنى هذه الفكرة أملاً كبيراً بأن الوضع سيكون على مايرام...

بينما كان الوضع سيئاً على القطار.. فقد كان الغبار الأسود ورائحة الغاز تغطى جنبات القطار، وكنت بالكاد أستطيع الرؤية، وراحت الذكريات تراودنى عندما كنت مختنقاً أنا و(حياة) فى حجرة المطبخ، بينما لم أستطع إنقاذها ...

أتذكر أن المستشفى الذى حدثت بها هذه الأحداث كانت مطلة على البحر من إحدى جوانبها، وحين ثقبت الحائط الداخلى لغرفة المطبخ كان هذا هو الجدار المطل على الماء وقذفنى الانفجار إلى الماء ...

بعد الزرقة القاتمة تحت الماء خرجت للسواد الكالح فوق الماء .. كل شيء تلون بالأسود حزناً على (حياة)، هذه الفتاة الرقيقة ناعسة العينين، الفتاة التى كان حلمها أن تمتلك أوكرديون لتعزف عليه، راحت (حياة) ضحية غدر الزمان ....
لم أستطع وقتها أن أذهب إلى بيت أمى لأنهم حتماً كانوا سيبحثون عنى هناك، عندما يكتشفون أنى لم أمت، وكنت فى حالة إعياء شديد، فذهبت إلى أحد أصدقائى القدامى وكان يسمى (عمر)، كان يقيم مع أمه فى نُزل صغير كانت تملكه..

****

وجدت القطار يهدئ من سرعته فاعتدلت فى جلستى وأنا أنظر إلى تلك المبانى القديمة على جانبى الطريق، فقد دخل القطار القرية التى أسكن بها وأخذ يبطئ حتى توقف...

****

كانت هناك سيدة ممتلئة الجسم تجلس فى منزلها على أحد الكراسى الكبيرة وقد أسندت رأسها إلى يدها بينما طرق الباب طرقاً خفيفاً، فتنبهت السيدة ورفعت رأسها نحو مصدر الصوت، بينما واصل هذا الصوت الطرق بدون ضجة، فقامت من جلستها وتوجهت نحو الباب فى حذر وهى تقول :

- من الطارق ؟

حيث لم تسمع رداً ففتحت الباب ببطء، وما كادت أن ترى الذى خلفه حتى صاحت صيحة مكتومة :

- (زيد) ؟!

فأمسكت بأمي وأدخلتها وأغلقت الباب خلفى، أخذتها بين ذراعيّ وانفجرتْ هى باكية غير مصدقة وهى تقبلنى ولا تستجمع من الكلمات سوى:

- الحمد لله .. الحمد لله...

أخذت أقبل يدها ورأسها وأنا أقول أيضاً :

- الحمد لله يا أمى .. الحمد لله أنك بخير ...

فقالت بصوت مبحوح :

- لا يهم أن أكون بخير، المهم أنت يا حبيبى... ولكن ادخل أولاً.. ادخل هيا واجلس يا ولدى ...

وجلسنا على الأريكة التى تواجه الباب واستأنفت هى تقول :

- قل لى يا حبيبى ما حل بك؟ ماهذا الذى أسمعه؟ لقد كنت علىَ وشك الجنون من قلقى عليك، ولم أصدق كلمة مما يقولونه عنك، وقلت لابد من خطب ما .. وعندما اتصلت أنت بى وسمعت صوتك اطمأننت عليك كثيراً ولكنى لم أرد أن أندفع فى ردة فعلى وأغلقتْ الهاتف بسرعة، لأنى توقعت أنهم ينتظرون اتصالك، ولابد أن الهاتف مراقب من قبل الشرطة ..

ربتتُ على كتفها وأنا أقول بصوت كله أسى :

- نعم يا أمى .. لقد كان الهاتف مراقباً وقت ذاك، وما لبثت أن وضعت الهاتف وجلست قليلاً حتى

رجال الشرطة يلفون المكان، ولكنى استطعت الهروب منهم، ومن وقتها وأنا حائر فى أمرى لدرجة أننى هممت بتصديقهم لما يقولونه عنى ..

(وأنشأت فى رواية كل شىء لها)

أطرقت أمى قليلاً وقالت :

- ما أغرب هذه القصة، فلقد رُتبت الأحداث بترتيب دقيق من ترتيبات القدر، ودلت كل الشواهد على أنك القاتل ..

فأخذت أتمعن فيما ترويه، وكأن سحابة كبيرة بدأت تنقشع عن تفكيرى لأتذكر حقيقة القصة، فقلت لها:

- أكملى يا أمى أرجوك ولا تفوتى شيئًا.
- صباح يوم الجريمة، المفترض أنك خرجت كالعادة نحو بنزينة (عمر) صديقك، الذى كنت تعمل معه، أذكر أنك هاتفتنى يومها كعادتك كل صباح وسألتنى إن كنت أريد شيئاً ..

فقاطعتها بصرخة مكتومة قائلاً :

- (عمر) ....

ارتجف جسمى فجأة عندما تذكرت واستأنفت قائلاً :

- لقد كان (عمر) ....

غطيت وجهى بكفى ثم نظرت لأمى بعينين دامعتين قائلاً:

- لقد كان (عمر)هو المقتول يا أمى ..

أخذ جسدى فى الارتجاف أكثر وأنا أتذكر الموقف كاملاً، أتذكر رؤية صديقى مقتولاً .. لقد علمت من البداية أنى لم أقتل أحداً ..

قالت أمي في تأثر :

- يقول الناس أنهم رأوك تدخل البنزينة وتخرج راكضاً نحو الطريق العام محاولاً الهرب، وآخرون رأوك وأنت تخرج من بيت أمه قبل ذلك، وقد وجدوا الاثنين مقتولين ..

نظرت لها بيأس واستطردت أقول :

- ياربي لم أوقعتني في مثل هذا؟.. وما ذنب من قتلوا بغير سبب؟ أتعلمين يا أمي؟ لقد ذهبت إلى البنزينة في الصباح كعادتي فوجدت الباب مغلقاً وهاتف (عمر) غير متاح، فتوقعت أن يكون مازال في البيت رغم أنه لا يتأخر عن ميعاده أبداً .. فذهبت إلى حيث يسكن وكانت هناك أمه، وقد سألتها عن (عمر) وأخبرتني أنه غادر مبكراً، فرجعت مرة أخرى إلى البنزينة، كان كل شيء يبدو ساكناً، والمحل الذي أعمل به بجانب البنزينة مقفلاً أيضاً..

ولكني لم أرَ ما رأيته أول مرة، لقد رأيت أن الباب مازال مقفلاً، ولكن القفل الذي عليه ليس مقفلاً، فخلعت القفل من مكانه ففتح الباب، فلم يكن مغلقاً بالمفتاح أيضاً، لقد كان القفل معلقاً على الباب المفتوح ..

راحت الأفكار تتضارب في رأسي وتقدمت داخلاً المحل ولكني لم أجد أي حراك، وكان الظلام يلف المكان، ففتحت بعض النوافذ وأنا أتعجب مما يحدث وأنا أشعل سيجارة كالعادة، وعند التفافي نظرت إلى ما وراء البنك ....

ووقعت السيجارة من فمي على أثر ما رأيت، فقد وجدته غارقاً في دمائه .. وجدته مذبوحاً يا أمي ...

وانهرت باكياً من هول ما تذكرت، الصورة تمثلت أمام عينى كأن هذا حدث منذ دقائق، فربتت أمى على كتفى وهى تقول:

- رحمه الله ..هون عليك يا (زيد)، فقد حصل الأمر وانتهى، وما عليك الآن سوى إثبات ذلك .. إثبات أنك بريء .
- لقد صدق الناس حين رأونى أركض نحو الطريق، فلم أتحمل هذا الموقف العصيب، وأخذت أصرخ وأجرى بلا هدف، فللمرة الثانية أرى أمامى شخصاً أحبه مقتولاً، أخذت فى العدو ولم أدرِ ماذا حل بى، إلى أن صدمتنى شاحنة وفقدت بعدها الوعى تماماً، وقضيت باقى هذه الفترة لا أعرف من أنا أو من أين جئت، وأنا راقد فى مستشفى المدينة ..

كنت مرهقاً جداً وأنا أسرد لأمى ما حدث، ولم يكن بيد أمى حيلة غير أن تواسينى ببعض الكلمات، كنت أرى بعينيها أنها تريد مساعدتى بأى طريقة حين قالت:

- اسمع يا (زيد) .. لا يوجد ما يحدث دونما سبب، وإن شاء القدر أن تقع بمثل هذه المصائب فلابد أن هناك سبباً ما لا يعرفه أحد، ولكنك ستعرفه بعون الله ..

  لا تتوقع أن يتخلى عنك الله بسهولة، فأنت إنسان طيب ، ولكن كما قلت لك ستعرف السبب عما قريب إن شاء الله.

****

أفلت شمس الحياة عن هذا اليوم وبدأ الظلام فى نشر جيوشه حين طُرق باب المنزل ففتحت أمى لتجدها (فهيمة) أرملة متطفلة فى عقدها الرابع تعيش بجوارنا، ولكنها أحيانا ما تأتى لتساعد أمى فى أمور المنزل، دخلت متلهفة وهى تمسح المنزل من الداخل بعينيها وقالت لأمي:

- سمعت أن (زيداً) قد أتى ..

فقالت لها أمى بحزم :

- ماذا حدث يا (فهيمة)؟ ولماذا أنت متوترة هكذا؟
- وربى يا (رجاء) كلنا نعلم أن (زيدًا) برىء، ولكنى رأيت رجال الشرطة يجوبون المنطقة، ولابد أنهم علموا بمجيئه وأرادوا القبض عليه، فإن كان هنا فاجعليه يهرب بسرعة .
- يا فلذة كبدى يا ولدى .. لقد دخل منذ برهة للاغتسال ومن ثم غرق فى سبات عميق، ولكنى لابد أن أذهب لإيقاظه..

ودخلت أمى مسرعة نحو حجرتى وفتحتها بقوة وأخذت تنظر فى أرجاء المكان قبل أن تتفوه بشيء حين سمعت طرقاً شديداً على باب المنزل، فالتفتت نحو مصدر الطرق، بينما راحت (فهيمة) ترتجف خوفاً، ولم تتمالك نفسها إلا وفتحت الباب.

بالفعل صدق حدسها، فقد كان رجال الشرطة وقد أتوا للبحث عنى، وأخذوا يسألون عنى، ونظرت (فهيمة) لأمى برعب ولكن أمى بثبات قالت لهم :

ادخلوا وفتشوا.. فلو جاء فلابد أن يكون بالداخل.. هيا تفضلوا ..!

{16}

كنت فى هذه الأثناء خارج المنزل متوارياً فى الظلام أستمع لكل ما حدث، فبعدما اغتسلت وذهبت لأستريح قليلاً، لم أستطع النوم من كثرة ما يصول ويجول فى عقلى، وسمعت هذه السيدة التى دخلت وقصت على أمى ما حدث فلم يكن منى إلا أن أبادر بالهرب من نافذة حجرتى الصغيرة، وكنت قلقاً على أمى فليس لها شأن بهذا كله، ففضلت أن أنتظر وأستمع لما يحدث ...

ولكن لابد لى من أن أظهر المجرم الحقيقى، وتذكرت التسجيل الصوتى التى سجلته (حياة) للكلب (زيدان) فقد خبأته فى أحد أدراج المحل فى البنزينة ..

التففت حول البيت من الخلف حتى أراقب رجال الشرطة ولكنهم كانوا لايزالون بالداخل ففضلت الهروب من وسط الأشجار من خلف البيت، ولكنى لم ألبث أن أشق الظلام حتى وجدت ضوءاً خافتاً سُلط عليّ، ويداً تمسك بكتفى وتسحبنى بشدة وصوتًا غليظًا يقول لى :

- إلى أين تنوى الذهاب ؟

ووجدت أن آمالى كلها تبددت وهم يلتفون حولى ومعهم بعض الكلاب البوليسية، واقتادونى مسرعين دافعين إياى فى داخل سيارة ...

كنت فى حالة ذهول متوقفًا عن التفكير والكلام، وفجأة بددت هذا الاستسلام وأنا فى حالة هيستيريا قائلاً لهم :

- أرجوكم .. لقد كنت أحاول الهروب لاكتشاف من هو المجرم الحقيقي .. كنت ذاهباً لأحضر تسجيل صوت لمن قتلوا (عمر)، لابد أنهم ظنوا أنه أنا وذهبوا لقتله ظناً منهم أنه أنا .. لقد خبأته فى البنزينة ..

دفعنى أحدهم بقوة وهو يقول :

- أكان هناك تسجيل صوتي أيضاً؟ سنرى إذن ..

اندفعت بنا السيارة وأنا مازلت أصيح وأقول فى يأس :

- أرجوكم صدقونى ... أن لم أقتل أحداً ... (عمر)كان صديقى كيف أقتله؟!!

صاح فيّ أحدهم :

- اخرس .. وإلا سأخرسك بنفسى ..

كنت جالسا بين اثنين ضخمي الجثة، وكانت السيارة مسرعة وكنت مشتت الذهن، وما إن انتبهت إلى الطريق من حولى حتى وجدت أنهم لم يسلكوا الطريق إلى قسم الشرطة، ولكنهم اقتادونى إلى البنزينة التى كنت أعمل بها..

تنفست الصعداء عندما وجدتهم يصدقونني، ودققت النظر إليهم من خلال الضوء المتردد على وجوههم فى الظلام، فكانوا مألوفين لدي فى بادئ الأمر وسرعان ما انتبهت ...

إنهم ليسوا رجال الشرطة، ولكنهم كانوا مجموعة شياطين، فقد كانوا هم من أوقعوا بى من البداية، هم من اغتصبوا (حياة) وقتلوها فى غرفة الفرن، هم من قتلوا (عمر) وأمه بالتأكيد، كان عن يمينى ويسارى (حسام) و (منير) الضابطان ضخما الجثة، وأمامى كان يجلس بجانب السائق قائدهم الشيطان الأكبر

(زيدان) فنظر لى بابتسامته المقيتة نظرة قتلت كل شيء بداخلى.

راعنى المنظر وصمتّ لبرهة بينما توقفت السيارة بجانب البنزينة التى باتت خاوية، ففتحوا الباب وأخرجونى وقال (زيدان) :

- أتريد أن توقع بنا إذن؟

كان هناك سيارة أخرى تابعة لهم أيضاً كانت تلحق بنا، وتوقفت أيضاً فخرج منها كلبان بوليسيان ضخمان ورجلان يمسكانهما ..

تراجعت أنا قليلاً بينما استأنف(زيدان) قائلاً :

- كم مرة عليّ أن أتخلص منك؟ أذهب يا شاطر وأحضر التسجيل قبل أن أجعل هذين الكلبين يمزقانك...

ودفعنى (منير) بلكمة قوية فى صدرى أوقعتنى أرضاً قائلاً بصرخة قوية :

- هيا أذهب....

تعرفت على وجوههم رغم أنى لم أرهم سوى مرة واحدة من قبل ... يوم أن قتلوا حياة فى المطبخ وحاولوا قتلى معها، (زيدان) و (حسام) و (منير)، وأيضاً نفس الكلاب التي أتوا بها من قبل، بل ونفس الرجلين الممسكين بالكلاب ...

قمت من على الأرض وأنا أرتجف بينما تقدم أحدهم نحوى وجذبنى بعنف من ملابسى رافعاً إياى بقوة وهو يقول :

- هيا يا ابن الوسخة بلا تكاسل ... هيا

دفعنى نحو الباب الزجاجى بكل قوته فتكسر وتحطم معه وجهى وأصبحت لا أرى من كثرة الدماء التى انفجرت من

شقوق وجهي، ولكني تقدمت وأنا أرتعش وأمسح الدماء عن وجهي، فتقدموا خلفي واحداً تلو الآخر والكلاب في أيديهم تزمجر بصوت مكتوم ..

تذكرت فجأة أنني كانت تقطر مني الدماء بهذه الصورة من قبل عندما وقعت على وجهي أيضاً .. ولكن هذا لم يكن (ديجا فو) لموقفي في جينها، ولكنه كان في مباراة بطولة الجامعة للكونغ فو حين حصلت على المركز الأول..

لم أنتظر حتى أتذكر شيئاً آخر، وبسرعة البرق وفي الظلام من حولي التففت حول نفسي وركلت من دفعني نحو الزجاج بركلة في وجهه أطاحت به، وتقدمت نحو الاثنين الآخرين وأنا أصرخ بهم ولكمت أحدهم ثلاث لكمات قوية في وجهه متبادلة مع كوعي في وجه الآخر، وتعلقت برقبة الأخير الذي لم أتبينه إلا من خلال الأضواء المتسللة إلينا من الطريق، بينما قام من لكمته في وجهه وحاول إمساكي ولكني وأنا ممسك بالآخر ركلته في وجهه بعنف، وأخذت أكيل لمن أمسك به في وجهه بعنف.

وسرعان ما وجدت الكلاب تجري بسرعة نحوي وهي تنبح بعد أن أفلتها ممسكوها، فتركت أنا كل شيء وركضت إلى داخل المحل المظلم والكلاب من خلفي، بينما قام الثلاثة الآخرون وهم يتأوهون ويسبونني بأقذر السباب، فقد كانوا غير مصدقين لما فاجأتهم به، وقد كنت أنا أيضاً مُفاجأ، ولكن إفراز الأدرنالين في جسدي جعلني أتصدى لهم بكل قوة.

كادت الكلاب أن تدركني، ولكني قفزت إلى خلف البنك الذي وجدت (عمر) خلفه من قبل، وبرشاقة قفز أحد

الكلاب خلفى، وكانت المساحة خلف البنك ضيقة جداً، ولم أجد بجانبي إلا مفتاح ربط الأنابيب، ومع هجوم الكلب عليّ هويت بالمفتاح على رأسه بعد أن غرز أنيابه فى ذراعى الأيسر، وأخذت أضربه بمفتاح الربط على رأسه حتى سمعت صوت تهشم جمجمته وهو يعوى، وقمت بسرعة بعد أن أزحته، عنى وكان الكلب الآخر خلفه لا يستطيع الوصول إليّ، فاعتليت البنك وقفزت إلى الجانب الآخر قبل أن يدركنى الكلب الآخر، راجعاً إلى من كانوا ينتظروننى بالخارج .

وما إن رأيتهم أمامى والكلب من خلفى، ترددت قليلاً قبل أن أندفع إلى باب كان عن يمينى فدخلته مسرعاً، وقد كان الباب الجانبي لغرفة غسيل السيارات التى تتوسط المحل والبنزينة، وقد كانت غرفة ضيقة وكان بابها الرئيسى ناحية الشارع مغلقاً، واندفع الكلب داخلاً الغرفة خلفى ولا يوجد مخرج آخر .

ومع انقضاض الكلب عليّ جريت ناحية الحائط وصعدت عليه لأرتقى عالياً، ومن ثم انقلبت رأسياً للخلف فى حركة بهلوانية فأصبحت خلف الكلب، وبسرعة ركضت نحو الباب الذى دخلت منه، ولكن قبل أن أخرج أدرت مشغل غسيل السيارات ، فقد كان يغمر الغرفة بالماء وريش التنظيف، وخرجت مسرعاً واقفلت الباب على الكلب ..

وما إن أصبحت خارجاً حتى انقضوا عليّ وأصبحت لا أميز من الذى كان يضربنى، فقد انهالوا عليّ ما بين لكمة وركلة حتى أوقعونى أرضاً، وبشراسة تقدم نحوى (زيدان) وركلنى فى معدتى ركلة كادت تجعلنى أتقيأ، وأعطى إشارة للرجلين الذين تكلفا من قبل بإمساك الكلب لإمساكى الآن، وأوقفونى وأخذ

هو بكل ما أوتى من قوة يلكمنى فى وجهى حتى أصبحت بلا ملامح ..

بلا تردد ركلته ودون أن أراه ركلته بقوة بين رجليه، فتأوه على أثر الضربة وانحنى قليلاً فلحقته بركلة أخرى فى وجهه فوقع على الأرض، بينما أخذت أدور بالرجلين الذين يمسكان ذراعى، وكان (حسام) و (منير) يلتفان حولى يحاولان إمساكى أيضاً، و(زيدان) ملقى أرضاً ويهم بالنهوض وهو يقول لهم:

- أمسكوا ابن المتنا...

ولم يدركنى الاثنان ولا الرجلان الممسكان بى عندما التففت بذراعى رأسياً حتى أصبحت خلفهم، فأصبحت أنا المتحكم، فقد كانت أذرعهم ملتوية تحت ذراعى، وبدفع ذراعى لأعلى رأسياً وأنا على هذا الوضع سمعت طقطقة عظام أحدهم نتيجة كسر ذراعه، وأخرجت يدى بسرعة منهم وبقوة أمسكت برأسيهما وتخيلت أنى أكسر بيضتين.. وبنفس طريقة البيض وجدتهما يتراجعان للخلف وكلٌ منهم ممسك برأسه ..

ووجدت (حسام) و (منير) يتقدمان نحوى مسرعين، توقعا منى بالتأكيد أن أهرب، ولكنى هرولت نحوهم وبقفزة بسيطة عن الأرض وأنا فارد ذراعيّ أفقياً ارتطمت بوجوههم بقوة فسمعت هبد أجسادهم على الأرض ..

قام (زيدان) وهو ممسك فكه، فطرت إليه وارتقيت جسد (منير) وهو على الأرض لأعتلى به قليلاً، وبسرعة وكأننى أركل كرة قدم، ركلت (زيدان) فى وجهه فوقع على ظهره وهو يزفر دماً من فمه ..

وتقـدم إليّ أحـد رجـال الكـلاب فقـد كـان الآخـر مطروحًـا أرضـاً مكسـور الـذراع، فتخيلـت أنـه سـندباج رملـى معلـق، فأخـذت أتمـرن عليـه، فخرجـت مـنى ركـلات ودفعـات ولكمـات وأخـيراً ضـربة بقـدمى فى ركبتـه ثانيـاً إياهـا بشـكل عكسـى فخرجـت عظـام فخـذه ممزقـة البنطـال مـن الخلـف فصـرخ مـن الألم، وارتمـى على الأرض ..

توقفـت لبرهـة ألـتقط أنفاسـى وأنـا أتكـئ علـى الحـائط، ولكـن (منـير) قفـز وارتمـى بجسـده الضـخم علـيّ فارتطمـت بالحـائط، وقام (حسام) واندفع نحوى هو الآخر.

وقـام (زيـدان) وهـو يبصـق دمـاً وينظـر لى بغـيظ، ولكنـه لم يتقـدم نحـوي، بـل تراجـع نحـو غرفـة غسـيل السـيارات، والـتي كـان يسـمع منهـا صـوت الكلـب وهـو مـازال حبيسـاً بها وهـو يعـوى، ومـا إن فـتح البـاب حـتى أغـرق بالصـابون والمـاء ولم يسـتطع إخـراج الكلب، وأخذ يدور وهو ممسك بوجهه وعينيه ..

كنـت أحـاول تخلـيص نفسـى مـن (حسـام) و (منـير) فى حـين كـان يهـوى أحـدهما نحـو وجهـى بلكمـة فتنبهـت لهـا وأحنيـت رأسـى فارتطمـت يـده بالحـائط، وبسـرعة لكمـت الآخـر ولكنهـا لم تـؤثر فيـه فقـد وهنـت قـوتى وأصـبحت غـير قـادر علـى الضـرب مـرة أخـرى، فـانقض علـيّ بذراعـه ولكـنى انحنيـت مـرة أخـرى والتففت وأصبحت خلفه فدفعته بقدمى نحو الآخر .

تخلـص (زيـدان) مـن الصـابون علـى وجهـه وتقـدم نحونـا مسـرعاً، ومـا إن وجدتـه قادمـاً هـو الآخـر ركضـت إلى آخـر المحـل إلى أن وصـلت إلى البنـك وأنـا منهـك القـوى، فصـعدت عليـه بتهالـك ورميـت بنفسـى للجهـة الأخـرى، وكـان الثلاثـة يتقـدمون نحـوى ولم

أجد بجانبي سوى الكلب النافق والمفتاح الحديدى الكبير الذى شججت به رأسه، فأخذت المفتاح وبكل قوة قذفته نحوهم، فأفلت منه (زيدان) وأيضا (حسام)، ولكنه جاء فى منتصف رأس (منير)، فأخذه وسقط .

وتقدم (زيدان) نحوى مسرعاً بعد أن أفلت من المفتاح الحديدى، فصعدت على البنك مرة أخرى وقفزت منه إلى (زيدان) وبكلتا قدمى ركلته فى وجهه فسقط أرضاً وسقطت أنا بجانبه...

فأمسك بى (حسام) فدفعت يده بساعدى وسددت له بالأخرى فى وجهه عدة مرات، ولكنه كان قوى البنية فاحتمل الضرب، وبكلتا يديه رفعنى وهشم عظام ظهرى فى الحائط القريب، ولمحت (زيدان) قادماً من خلفه، وبكلتا سيفى يدى ضربت (حسام) فى رقبته ومرة أخرى تحت أذنه حتى تركنى فسقطت أرضاً، وأفلتُ من تحت ذراعه، مندفعاً نحو (زيدان) فأخذته وارتميت به على الأرض، وأخذت أكيل له فى وجهه، وبكلتا يدى وبغيظ شديد أمسكت برأسه ورطمتها فى الأرض...

ووجدت (حسام) من خلفى يمسك بى، وبمؤخرة رأسى سددت له ضربة عمياء فى أنفه، والتفتُّ بسرعة وأنا أسدد له أمامية بقدمى دافعاً إياه نحو الحائط فارتطم به، فأسرعت نحوه وبقفزة عالية هويت على أعلى رأسه بكوعى ولحقته بركبتى فى أنفه مرتين، ثم بقبضة صاروخية أخرجت قرف الأيام الماضية فى وجهه فسقط أرضاً ... وسقطت أنا بجانبه..

ونظرت خلفي فوجدت (زيدان) ملقى أرضاً كما تركته وتسيل الدماء من مؤخرة رأسه، فانهرت أنا على الأرض بعد أن خارت قواى .. ولكني تغالبت على نفسي ومشيت على أربع إلى أن وصلت للبنك فتشبثت به وحاولت الوقوف، بينما كانت الدماء تقطر من جميع أنحاء جسدى، والتففت حول البنك وبعناء دسست يدى فى درج داخلى كنت قد خبأت به ذاكرة الهاتف التى سجلتها (حياة) لـ (زيدان)، وما إن لامست يدى إياها حتى أغمضت عينى وتنفست الصعداء ونظرت لأعلى وأنا تترائى لى صورة (حياة) المسكينة وما فعله بها هؤلاء السفلة، ويعلم الله كم من الفتيات كن ضحايا لنزوات هؤلاء المجرمين ...

وضعت الذاكرة بجيب البنطال، وبدت لى فكرة قتل هذا الحقير الملقى أرضاً .. ومشيت نحوه وأنا أجر قدمى وجلست على صدره وكان يتنفس ببطء، فقلت له بعينين دامعتين وأنا أجذبه من سترته:

- لماذا ... لماذا ؟

كنت تملك كل شىء ... كان بيدك كل شىء ... لن يمنعك منى أحد الآن ...

وأطبقت يدى على رقبته محاولاً انتزاع روحه الآثمة، وسرعان ما وجدت صوتاً يأتى من غرفة غسيل السيارات، فتذكرت أن الكلب مازال حياً، وقد عانى من الماء والصابون بالداخل ..

وبسرعة بدت لى فكرة مجنونة ولكننى نفذتها على الفور، فقد أدركت أن الكلب حتماً سيأتى على الرائحة فلكمت (زيدان)

فى وجهـه بقـوة، وخلعـت ملابـس نصـفى الأعلـى كاملـة وأدخلـت رأسه بها، وهرولت نحو البنك لأتوارى خلفه..

وبقـوة وجـدت الكلـب يفـتح بـاب الغرفـة حـتى كـاد أن يخلعـه مـن مكانـه، وقـد كـان مـبللاً عـن آخـره، ومـا إن رآه ملقـى علـى الأرض حـتى ظـن أنـه أنـا، وبوحشـية الغابـة انقـض عليـه فصـرخ (زيـدان) وحـاول أن يشـير إلى مكـانى ولكـن لم يمهلـه الكلـب وأخـذ رقبتـه بـين فكيـه فخلعهـا مـن مكانهـا، وغـرز بعـدها أنيابـه بوجهه يمزقه فسمعت صوت تهشم جمجمته ...
كـان هـذا آخـر مـا رأيتـه قبـل أن اختـبىء خلـف البنـك كاتمـاً أنفاسى حتى سمعت صوتاً لعيار نارى وصراخ فتاة.

{17}

كنت ما زلت مختبئاً خلف البنك، وأخذ عويل الفتاة يعلو والطلقات النارية تتزايد مع عواء الكلب، حتى هدأ كل شيء.

حاولت إلقاء نظرة من خلف البنك، ولكنى لم أستطع تمييز هذه الفتاة فى الظلام، فقد تسمرت أمام الكلب وهو يقتل (زيدان) وهى تتنفس بسرعة، حدقت بها قبل أن أميز ملامحها وأصيح : - (هالة) ؟!

فنظرت إليّ بعينين شاردتين ولم تتكلم ...

قمت ببطء وأخذت فى الاقتراب منها وقد ضاع عنى التعب فرفعت سلاحها أمامها وهي تتبين القادم نحوها، وما أن تبينت ملامحى حتى أنزلته وهرولت إليّ صائحة وبعينيها بعض الدموع:

- (زيد) ... هل أنت بخير ؟

وأشارت إلى الكلب واستأنفت :

- لقد ظننت أنك ...

- لا عليك يا (هالة) فقد نلت منهم ...

فوجدتها تحدق في شيء ما خلفى، وبحركة مباغتة منها، رفعت مسدسها وأطلقت رصاصة على رأس (منير) الذى استيقظ وقتها - من بعد ما قذفته بالمفتاح الحديدى فى رأسه - وكان يهم بإطلاق النار علينا بمسدسه .

فى حين تحرك (حسام) صارخاً من صوت الطلقة مبتعداً عنه وقد غطت الدماء وجهه وورمت عيناه فقال :

- أرجوك ..لا تقتلينى ..

فأغمدت (هالة) مسدسها فى جرابه، وبينما كنت مذهولاً مما يحدث حولى، فما هذا التغيير الطارئ على شخصية (هالة)؟ومن أين لها بهذا السلاح ؟

ولكنى لم أعر هذا اهتماماً، وقمت مسرعاً وتوجهت صوب (حسام) جاذباً إياه من سترته وأنا أقول بصوت أول مرة أسمعه يخرج من حلقى :

- لِمَ فعلتم هذه الأفعال الدنيئة؟ لِمَ حاولتم قتلنا؟ ألم يكفكم ما فعلتموه بها، ولماذا تتبعتمونى وقتلتم (عمر) وأمه؟ انطق وقل لى .. انطق قبل أن أقتلع عينيك وأحشاءك ... انطق وجاوبنى قبل أن أهشم رأسك .. انطق ..

كنت أصرخ به فأتت (هالة) من خلفى وأمسكت بى وهى تقول : - اهدأ الآن يا (زيد) ولا تقلق س......

نظرت إليها وأنا ممسك بتلابيب (حسام) بغضب وقلت بغلظة : - لا تقولى لى اهدأ ...

وحولت نظرى إليه، وبقبضة من فولاذ سددتها له فى وجهه وأنا أقول له : - انطق وإلا سأقتلك ...

فأشار لى بيده وهو يعانى فتركته فأخذ يبصق دماً ويترنح، ثم تراجع للخلف وهو يقول :

- سأقول .: سأقول كل شىء ....

وجهت له (هالة) مسدسها فجحظت عيناه وابتلع ريقه واستأنف يقول :

- هو من فعل كل شىء .. (زيدان) كان يغوينا بالبنات الجدد، وطاوعناه ..

هو .. هو من أمرنا بقتلك يومها فى غرفة المطبخ ..
بعد أن أخبرنا (أدهم) بما تنوى فعله، ذهبت أنا و (منير) لنخبر (زيدان)، واتفقنا يومها على كل شيء.

نظرت إليه وسألته :

- ألم يكن (أدهم) على علم بما حدث ؟
- لا أدرى .. ولكن (زيدان) قال إنه صديقك ولابد ألا يعلم شيئًا ..
- كانت هناك فتاة ماتت من قبل فى حجرة الفرن وقالوا عنها أنها انتحرت ... أهو من قتلها أيضاً؟
- نعم .. هو من قتلها، قال إنها حملت وتريد أن تلصق الطفل به...
- فقتلها ....؟

لم يرد علىّ ونظر فى الأرض فنظرت لـ (هالة) التى ظلت ممسكة بمسدسها موجهه إياه لوجه (حسام)، فحولت نظرى إليه مرة أخرى وأنا أسأله :

- لماذا جئتم خلفى لتقتلونى بعد ذلك ؟
- كان يهددنا ، قال إننا معه فى كل شيء، أخبرنا أنك استطعت الهروب وكان لابد لنا من إتمام المهمة، علمنا أنك تعمل بالبنزينة فأجرنا رجلاً ليدخل ويقتلك، واتضح بعد ذلك أنه لم يقتلك أنت..

صرخت به وأنا أمسك بسترته دافعاً إياه إلى الحائط :

- ولماذا ذهبتم إلى منزله وقتلتم أمه؟
- أمه ؟! ..لا .. لم نذهب إلى هناك أصلاً..

سددت له لكمة فى وجهه وأنا أقول صائحاً فيه :

- أنت كاذب ..قل الحقيقة وإلا ....

أمسكت بى (هالة) فأخذ هو يتألم وهو يمسك وجهه ويقول:

- لماذا كنت سأعترف بهذا كله وأنكر هذا؟ أقسم لك إننا لم نذهب مطلقاً إلى منزل صديقك ونقتل أمه.. أقسم لك .. كل ما كان يهمنا هو أنت فقط..

فى هذه اللحظة سمعت جلبة من خلفنا وأصوات احتكاك إطارات سيارات بالأرض الصلبة فى الخارج، ولحظات ووجدت أضواء زرقاء وحمراء تضيء فى المكان كله وكشافات قوية الإضاءة تقترب منا يحملها رجال .. رجال الشرطة الذين دخلوا إلينا مسرعين..

قامت (هالة) من جانبى رافعة يدها إلى جانب وجهها تحيى الضابط الذى دخل للتو قائلة له :

- تمام يا أفندم ..

وأشارت إلى الرجل المطروح أرضاً واستأنفت :

- هذا هو المجرم الحقيقى وهؤلاء الملقون أرضاً ..

لم أفهم شيئاً مما حدث ولكنى أدركت أن الحقيقة بانت، وأخرجت ذاكرة الهاتف من جيبى وأشرت للضابط قائلاً :

- الحقيقة هنا ...

{18}

فى صباح اليوم التالى كنت بالمستشفى كمتهم ولست كمريض عادى، وعرفت أنه تم القبض على (حسام) الذى اعترف على زملائه والجنديين الآخرين، بينما وجدوا (زيدان) ممزقاً من الكلب و(منير) مقتولاً بطلق نارى فى رأسه ..

كنت قد بدأت أتعافى ودخلت عليّ الممرضة وهى تقول :

- هناك أشخاص يريدون رؤيتك ..

ودخلت أمى من خلفها، فاعتدلت على السرير، فهرولت إليّ وهى تفرد ذراعيها وتقول :

- ابنى حبيبى ....

مددت ذراعي واحتضنتها وأنا أقول :

- لقد عانيت يا أمى .. لقد عانيت كثيراً وتعبت ..

جلست على طرف السرير وهى تقول :

- الحمد لله يا (زيد) .. أنت بأحسن حال الآن وهذا ما يهمنى .. وأنا فخورة بك .. وكل شىء سيكون على مايرام ...
- الحمد لله يا أمى ..
- عندى مفاجأة لك ...

فقامت وهى تنظر لى نظرة لم أفهمها، وسارت نحو الخارج، ثم عادت ومعها (هالة)، وكانت تمسك بيدها باقة من الورود الحمراء، فرفعت حاجبى فى دهشة وأنا أدارى شغفى الشديد برؤيتها، ثم قلت فى برود مصطنع :

- أهــلاً ... أهــلاً يــا (هالــة) ... أقصـــد أيتهــا الضــابط (هالة)...

انسحبت أمي من الحجرة وهى تقول :

- بعد إذنكم .. سوف آتى بشىء من الخارج ..

تابعتها (هالة) بنظرها إلى أن خرجت ثم نظرت إليّ وقالت :

- لقــد جئــت لأطمئن عليــك يــا (زيــد) .. كيــف حالــك الآن ؟

- بخير .. كما ترين ..

فردت مندفعة وقالت :

- (زيــد) .. أريــد أن أوضــح لــك شــيئًا أولاً .. لقــد جئــت فى طريقـــى بالخطـــأ .. لا أدرى مـــاذا أقـــول ولكنـــه ماحدث ..

نظـرت لهــا باسـتفهام دون أن أرد، وكانــت تنتظـر الـرد فاسـتأنفت تقول :

- كنــت مكلفــة بمراقبــة شــخص .. عميــل لدولــة أخــرى.. لم نكــن نــدرى شــكله ولكننــا وجــدناك أنــت، فظننــا أنــك هو، وقمت أنا بمتابعتك فى شكل ممرضة ...

ضحكت بصوت عالٍ وأنا أقول لها :

- جاســوس أيضــاً .. كانــت لتكتمــل بشــكل رائــع لــو كنــت أنا هذا الجاسوس ...

- أرجــوك يــا (زيــد) هــذا عملــى، وهــذا مــا كُلفــت بــه، ولم يكــن يعلــم أحــد بهــويتى الحقيقيــة، لــذلك عنــدما ذهبــت لتســـأل عـــنى فى المستشـــفى لم يـــدلك أحـــد .. ولكـــن عنـدما تأكـدت أنـك لسـت هـذا الشـخص الـذى يـدعى

فقدان الذاكرة، وعلمت بعد ذلك بقصتك الحقيقة، قمت ببعض التحريات وكانت هناك الكثير من الحلقات المفقودة، ولكن حدسي كان يؤكد لى أنك برىء، لذلك قررت مساعدتك ...

أطرقت قليلاً ثم نظرت فى الأرض وتورد لونها واستأنفت :

- ولكن ... يعلم الله أن مشاعرى كانت صادقة معك.

قاطعتها لأوفر عليها العناء قائلاً :

- أرجوك يا (هالة)، رغم أنى أعلم أنه ليس اسمك الحقيقى، أنا شاكر جداً لك، ولعملك على حمايتى طوال الفترة الماضية، ولكن لا تضحكى على نفسك، وأنا أتفهم الوضع جيداً، وقد أديت واجبك على أكمل وجه، ولا ألومك على مشاعرك ناحيتى، فأنا أيضاً كنت فى حالة غير طبيعية، وتعلقت بك كثيراً لأننى لم أكن أرى سواك فى عالمى الجديد ....

سكت لبرهة.وأنا أتجنب النظر فى عينيها ثم استأنفت قائلاً:

- لا أريد أن أبدو أنانياً، وأنت حرة فى حياتك. وبعد انتهاء مهمتك لا أطلب منك أن تحبينى كما كنت أحبك ..

سألت باستغراب :

- كنت تحبنى ؟

- أجل يا (هالة) .. كما كنت أحبك، فقد تعافيت الآن ولا أظننى قادراً على العيش فى أوهام الماضى، وأرجو أن تتركينى لأكمل حياتى من جديد ...

بـدت صـامتة متحجـرة العينـين، ثم مـا لبثـت أن التفتـت مسـرعة بعد أن تركت الورد على طرف السرير وانصرفت..

ظللـت أنظـر إلى البـاب وأنـا لا أدرى لمـاذا فعلـت ذلـك، ونظـرت ناحيـة الـورد وأخذتـه واستنشـقت رائحتـه وكـأننى أرجـوه أن تسـامحنى صـاحبته، فوجـدت بـه بطاقـة معلقـة بـدبوس صـغير، ففتحته ووجـدت أنهـا قـد تركـت لى بعـض الكلمـات الرقيقـة حـين كتبت :

" حبيـبى كيمـو .. أعلـم أنـك لا تحـب هـذا الاسـم، ولكنـه أول اسـم أطلقتـه عليـك وسـأظل أناديـك بـه، أرجـو أن تتعـافى قريبـاً لتأخـذنى وتـأتينى بالمثلجـات، فأنـت مـدين لى،أتتـذكر أم أنـك ستدعى فقدان الذاكرة؟ ☺

(هبة عبد الرحمن) – اسمى الحقيقى "

01278359538

ابتسـمت وأرخيـت رأسـى للخلـف وأنـا أزفـر نفسـاً طـويلاً كـان بداخلى ...

فدخلت أمى وقالت :

- ماذا حدث يا (زيد) ؟

وأشارت بيدها للخارج واستانفت :

- لقد خرجت باكية .. ماذا حدث ؟
- لاشـيء يـا أمـى .. لا تشـغلى بالـك ... لقـد تعافيـت فقط ..

بعدما خرجت أمى وحل المساء استلقيت قليلاً وأنا أسترجع كل الأحداث التى مرت بى من البداية إلى النهاية، ثم استدركت فجأة، فهذه ليست النهاية بعد..

طرق الباب ومن ثم دخلت الممرضة مبتسمة وهى تقول:

- كيف حال البطل الآن ؟

وهمت بإعطائى حقنة (مصل عضة الكلب) وهى تكشف عن ذراعى لترى الجرح ....

فقلت لها مبتسماً:

- البطل مازال يعانى ..

وكشفت عن بطنى وأنا أقول لها :

- أرجو أن تتوخى الحذر ...

عقدت حاجبيها وقالت باستغراب :

- ماذا تفعل ؟

أليست هذه حقنة من أجل عضة الكلب؟

- نعم هى كذلك .

- ألستم تحقنوها فى البطن؟ لقد سمعت ذلك ..

لا.. هذا كان قديماً جدا .. إنها حقنة عادية جدا فى الوريد ..

وابتسمت ونشأت فى زرعها فى ذراعى، وما إن انتهت قالت :

- قلت لى إنك تعانى..ممَ تشكو يا (زيد)، فلا أرى أمامى إلا جروحًا وكدمات بسيطة .

- لا أعانى شيئاً عضوياً .. ولكنه التفكير .. التفكير الذى سيقتلنى ..

فنظرت إلىّ للحظات وهى تحاول الفهم ثم سحبت كرسياً وجلست بجانب السرير وقالت :

- إذا أردت أن تحكى لى فكلى آذان مصغية، لقد سمعت قليلاً عما عانيت فى الأيام الماضية، ولكن بلا شك القصة ستكون منك مختلفة، ولا شك أيضاً أن هذا سيريحك قليلاً ...

فاعتدلت فى جلستى وأنا أتنهد وأتذكر الأيام الماضية ثم عقبت قائلاً :

- أحكى ؟! والله يا ... أنا لا أعرف ...
- (مريم) .. اسمى (مريم) ..
- إن ما عانيت فى الأيام الماضية يا (مريم)، بل فى الشهور الفائتة كان ليصبح فيلماً ناجحاً من أفلام هوليود، الغريب فى الأمر أن الإنسان كثيراً ما يصدق شيئاً ما ويحبه ومن ثم يدرك أنه كان يتوهم، يدرك أخيراً أنه كان يقنع نفسه بأمنياته فقط ..

ظلت (مريم) صامتة تستمع، وعندما سكتُّ عن الكلام أخذت تومئ برأسها مصدقة إياى القول، فتابعت كلامى :

- قبل عامين كنت إنساناً مختلفاً كلياً عما أنا عليه الآن، كان لا يهمنى شيءٌ سوى نفسى، كنت مستهتراً جداً وخصوصاً أيام دراستى الجامعية، كان كل ما يشغلنى هو مصاحبة أكبر قدر من الفتيات والخروج واللعب .. أما بعد دخولى الجيش وتعرضى لهذه الحوادث أصبحت إنساناً مختلفاً، تستطيعين أن تقولي إنى نضجت ووجدت أنه ليس من الصحيح أن يعيش الإنسان لنفسه فقط، ولكنه لابد أن يعيش للآخرين

أيضـاً .. حـتى لـو لم يحصـل مـن الآخـرين علـى شـيء، فيكفى أنه أعطى فقط ...

وظلـت (مـريم) مطرقـة تسـتمع للكـلام وهـى مبتسـمة، وهـزت رأسها كأنها تستزيدنى أن أكمل كلامى، فقلت لها:

- ما الأمر؟.. أراك مبتسمة ..
- أعجبـنى حـديثك، أشـعر أن بـه معانـاة، بـه معـانى كثـيرة ... معانى تفيد البشرية كلها.

فقلت ضاحكاً :

- البشرية ؟!

وأرحت رأسى للخلف وأنا أقول :

- إنه مجرد كلام ...

فأرجعت كرسيها مكانه وقالت :

- أستأذنك الآن يا (زيد)، فلابد أن ترتاح ..
- حسناً ...تفضلى يا (مريم) وشكراً على كل شيء.
- لا تقل ذلك يا (زيد)، وغداً سنجلس كثيراً .

فابتسمت وقلت لها :

- تصبحين على خير .

فردت علىّ وهى تخرج وتغلق الباب وقالت :

- Happy night

وغمـزت لى بعينهـا وأغلقـت البـاب .. فأرخيـت نفسـى فى السـرير وأنا أقول لنفسى:

- يا للممرضات ..!

{19}

كانت الظلمة حالكة وكنت راقداً على الأرض فى سبات وسكون عجيب، وسرعان ما قطع هذا السكون صوت عظيم يملىء المكان، يصحبه ضوء شديد كالشمس فى ضحاها ..

رفعت يدى أسد أذنى فى توتر عن سماع هذا الصوت المزعج، وواريت عينى من هذا الضوء العجيب ....

ولكن الصوت أخذ يعلو والضوء بدأ فى شمول المكان كله.. وكأن شيئاً عظيماً يقترب، هو مسبب هذه الضوضاء من حولى.

لحظات وتبين لى أنها شاحنة ضخمة تملأُ الطريق كله وتتقدم نحوى مسرعة يصحبها دوى صوتها العنيف، وهذا الضوء الذى لم يجعلنى أرى شيئاً سواه..

لحظات وأحسست أني مفقود لا محالة، وأن هذه الشاحنة ستدهسنى وتسوى بى الأرض، كنت أشعر أننى مكبل بالأرض لا أستطيع الحراك ..

ولم تمض إلا أجزاء من الثانية كنت أحاول فيها النهوض ولكن بلا جدوى، فتقدمت الشاحنة نحوى بسرعتها الفائقة ونالت منى ...

كل ما شعرت به فقط كان كعاصفة شديدة هبت علىّ ورجع المكان لسكونه الأول وفتحت عينى ولم أجد الشاحنة أو أى شيء، ونظرت خلفى فلم أجدها أيضاً، وعاد الظلام كما كان...

كنت على طريق لا أول له ولا آخر، فأخذت أتلفت يميناً ويساراً عسى أن أجد أو أرى أى شىء، وتراجعت للخلف قليلاً وقد راعنى منظر البنزينة التى وجدتها على يسارى تبعد بضع خطوات، لم تكن موجودة من قبل وظهرت فجأة، تقدمت نحوها فى حذر، وكان الباب الخارجى شبه مغلق فدفعته فسقط القفل الذى لم يكن مغلقاً وانفتح الباب ..

كان الظلام فى الداخل لا يختلف عن الظلام فى الخارج، وتقدمت وأنا أرى الأشياء مبعثرة هنا وهناك، وكأن أحدهم عبث بالمكان، وما إن وصلت إلى البنك فى نهاية الممر حتى التففت حوله ..

فى البداية لم أتبين هذا الشىء الملقى خلفه على الأرض، ومع اكتمال التفاف وضح كل شىء، وجدت أنها ساقٌ لشخص شبه نائم، وانتهيت أخيراً إلى وجهه وصعقت من هول ما شاهدت ..

فقد كان (عمر) وقد غمرت دماؤه رقبته وملابسه، فتراجعت للخلف فاصطدمت بالحائط خلفى بعنف، وأخذت أهرول نحو الباب، وما كدت أصل للباب حتى وجدت صوتاً يأتى من خلفى ينادى علىّ، فتسمرت مكانى ولم أنظر إلى مصدر الصوت، فعاد الصوت مرة أخرى ينادينى بوهن فاستدرت ببطء حتى أتبين من صاحب هذا الصوت، وما إن رأيت وجهه حتى شهقت وارتددت للخلف بضع خطوات، وتقدم صاحب الصوت نحوى بسرعة عجيبة، وأمسك بى وأخذ يتأمل وجهى ...

لقد كان (عمر) ... وكنت أرى شقاً كبيراً فى رقبته، ولكنه كان جافاً ولا أثر لنقطة دم واحدة عليه، فقلت له :

- (عمر) ؟! .. من الذى فعل بك هذا ؟

ولم ألق إجابة منه، وإذا برعشة تسرى فى بدنى، وأخذ يتفحصنى بعينيه الواسعتين ولم أستطع التحدث، فقد كان لسانى ملجماً فى حلقى، وظل هو ينظر إلىّ ثم قال :

- أنقذ أمى يا (زيد) ..

وظل يرددها بصوت عالٍ أخذ يتردد صداه فى أذنى، فانطلقت منى صرخة مكتومة ونهضت جالساً وأنا أنظر حولى، فوجدت أنى مازلت جالساً على سريرى بالمستشفى، وإذا بكل ما حدث لم يكن سوى حلم قاسٍ كتلك الأحلام التى كانت تراودنى من قبل ...

اعتدلت فى جلستى وأسندت ظهرى للخلف وأخذت أتذكر الحلم جيداً، ثم تذكرت كلمات (عمر) الأخيرة لى وهو يقول:

" أنقذ أمى" ...

وتذكرت أننى لم أعرف بعد من هو قاتل أم (عمر) إذا صدق كلام المجرم (حسام) ولم يستأجروا أحداً لقتلها مثلما فعلوا بـ (عمر)، ثم تذكرت أننى آخر من شوهد عندها، وأننى مازلت المشتبه به الأول ...

أزحت هذه الفكرة من رأسى، فلم يكن يهمنى ما سيحل بى، كل ما كان يشغلنى هو معرفة هذا المجرم وتقديمه للعدالة..

وتأثرت جداً بما حدث ودمعت عيناى ووجهت وجهى لأعلى وأنا أقول:

- ساعدنى يارب ... فليس لى سواك ..

ولاحظت أن هناك من يراقبنى فاستدرت بوجهى صوبه فوجدتها (مريم) وقد بدت متأثرة من موقفى، ولكنها انتبهت عندما نظرت إليها وتلعثمت قليلاً ثم قالت:

- أرجو المعذرة يا (زيد) فلم أشأ التنصت عليك، لقد دخلت لتوى .

فأشرت إليها بيدى مبتسماً وقلت :

- لا عليك يا (مريم) ..

اقتربت من سريرى وقالت :

- ما الذى تفعله بنفسك يا(زيد) ؟

- لا شيء يا (مريم) .. إنها مجرد ذكريات قديمة تراودنى..

وأخرجت من جيبها بعض حبيبات الدواء وسكبت لى بعض الماء فى كوب وناولتهم لى، فأخذت الحبيبات دفعة واحدة وشربت بعض الماء بعدها، وقلت لها وأنا أناولها الكوب :

- أشكرك يا (مريم) ..

- على أى شيء يا (زيد) ؟.. لا أفعل سوى عملى.

وجلست على الكرسى بجانبى واستانفت تقول :

- ولكن ما أفعله وليس عملى هو أننى أجلس معك الآن.. أرجوك يا (زيد) إن كنت تعانى من أى مشكلة فصارحنى بها .. ألسنا أصدقاء الآن؟

- بالطبع يا (مريم) .. ولكن ما يشغلنى كبير.. كبير علىّ، ولا أريد أن أشاركك فيه؛ فلن تتحملى مالا أستطيع أنا تحمله، وإننى قد اكتشفت ما كنت أريد معرفته، ولكن لابد أن يتبقى شيء ما مبهم غير معروف، وهذا ما يحيرنى .

أخـذت (مـريم) تحـدق بى ويظهـر علـى وجههـا علامـات الحـيرة والاسـتفهام، فنظـرت إليهـا فوجـدتها تهـز رأسـها بعـدم الفهـم؛ فأحنيت رأسى لأسفل وقلت لها مبتسماً:

- لا عليك .. فكما قلت لك الموضوع كبير ..

فابتسمت وقالت فى تحدٍ:

- كبـير عليـك أنـت، ولكـن إن اقتسـمته معـى فبالتأكيـد سيخف من على كاهلك..

قامت من مكانها وهمت بالخروج وهى تبتأنف:

- على العموم أنت حر فى عدم ثقتك بى .. أنا آسفة.

ناديتها بسرعة قبل أن تخرج وأنا أقول:

- (مريم) .. انتظرى أرجوك.

فنظرت لى من فوق كتفها وقلت بلوم:

- حسناً .. هل ستخبرنى ؟

ابتسمت ونظرت إليها نظرة المهزوم برضاه وقلت لها:

- اجلسى ..

فسـحبت الكرسـى وقربتـه أكثـر مـن السـرير، بينمـا اعتـدلتُ جالساً ونظرت إليها لبرهة متردداً ثم قلت:

- من أين سأبدأ؟ (وبدأت في سرد قصتى لها).

وبعـدما انتهيـت وجـدتها مغمومـة ممـا سمعـت، وظلـت صـامتة قلـيلاً وهى تقول وتكاد تبكى:

- رحمك الله يا (حياة) ...

وانهمـرت بعـدها فى البكـاء، نظـرت لهـا دون أتكلـم، وعـرض علـى ذهـنى كـل مـا حـدث وكأنـه فـيلم سـينمائي، وفجـأة.. تـذكرت شيئاً مهماً ولمعت عيناى وأنا أقول لها:

- الرجل ذو السترة البنية!

فقالت باستغراب وهى تمسح عينيها:

- ماذا ؟ ... ماذا تقصد بذلك ؟

- لقد تذكرت شيئاً مهماً.. فعندما ذهبت إلى البنزينة فى المرة الأولى وكانت شبه مغلقة، وذهبت بعدها إلى منزل (عمر) حيث وجدت أمه هناك، وأخبرتنى أنه غادر منذ الصباح، وعند مغادرتى لها ونزولى الدرج مسرعاً كما أخبرتك، مررت بشخص كان يقف أسفل الدرج، كان يرتدى سترة بُنية اللون، ولكنى وقتها كنت فى عجلة من أمرى فلم أعره انتباهاً ...أكيد بعد مغادرتى وبعد أن رآنى الناس أهرول مرة أخرى إلى البنزينة صعد هو إلى منزلها و...

فقالت مستفهمة :

- وماذا بعد ذلك ؟ ماذا حدث ؟

قلت وكأننى أحدث نفسى :

- قتلها ...

فقالت مستوضحة :

- ماذا قلت ؟

لم أكن أريد أن أقول لها ما جال بخاطرى فقلت :

- لاشىء يا (مريم) .. حقيقة لقد ساعدتنى كثيراً..

وأخذت يدها وقبلتها، فابتسمت ونزعت يدها فى حياء وقد أحمر وجهها خجلاً، فاستأنفت قائلاً :

- أنا آسف .. من شدة فرحتى لم أميز أفعالى ..

- ماذا تقول؟ لم أتضايق قط .. أنا سعيدة أنك فتحت لى قلبك..
- أشكرك يا (مريم) حقاً لقد أزحتِ عنى بعض ما أعانيه وارتحت لحديثى معك ...

وفى هذه اللحظة طرق باب الغرفة، فوثبت (مريم) واقفة، فنظرت إليها باستغراب وانفتح الباب فوجدت أنها أمى ومعها جارتنا (فهيمة)، فأحنت أمى رأسها تسلم على (مريم) واستأذنت الأخيرة وخرجت، فقلت بشوق:

- أمى ... أفتقدك جداً .
- ستخرج إن شاء الله قريباً ولن تتركنى أبداً .. كيف حالك الآن ..

وجلست على طرف السرير وقالت (فهيمة) التى كانت لاتزال واقفة :

- كيف حالك يا أستاذ (زيد) .
- الحمد لله يا (فهيمة)، على أحسن ما يرام.

فقالت مازحة :

- أرجو ألا نكون قاطعناكم ..
- ماذا تقصدين ؟

قلتها ضاحكاً وأنا أعرف ما تقصد، فقالت :

- لاشيء .. ولكنها جميلة جدا ..

وأشارت للخارج نحو مريم، فابتسمت وقلت لها :

- أنا لا أثق بالممرضات ...

فمطت شفتيها وقالت :

- سنرى .. كلكم تقولون هذا أول الأمر ..

فنظرت لها أمى وقالت :

- إتركيه لحاله يا (فهيمة)، فإن به ما يكفيه ..

أرحت رأسى للخلف وكنت أشعر بالتحسن فيما عدا بعض الجروح وأثر عضة الكلب، فقلت لأمى :

- أمازال هناك عسكرى يقف على باب الحجرة ؟

- إنه يقف على أول الممر ..

وكان الممر يبدأ بالدرج وعلى جانبيه حجرات المرضى وينتهى بنافذة كبيرة تطل على حديقة المستشفى، فاعتدلت فى جلستى وقلت لها :

- أريد أن أخرج يا أمى ..

فنظرت أمى إلى (فهيمة) ثم قالت لى :

- أنت أمامك يوم آخر على الأقل هنا، ثم إن عضة الكلب ...

فقاطعتها قائلاً :

- لا أقصد الخروج متعافيًا يا أمى، ولكنى أريد أن أهرب.

فصاحت فهيمة :

- تهرب ..!

فنظرت إليها ثم إلى أمى وقلت :

- أريد الخروج لأثبت شيئًا أخيرًا لم يتبق سواه، ثم أنى لو انتظرت موعد خروجى من هنا فسيأخذوننى إلى السجن لأننى مازلت مجرماً فى نظرهم .

فقالت أمى :

- هل عرفت شيئًا ؟

- تقريباً...

فقالت فهيمة :

- هل عرفت القاتل ؟
- أرجو أن أكون صائباً فى ظنى .. ولكنى أحتاج الآن إلى خدمة منكما.

وأزحت الغطاء وأخذت بيد (فهيمة) التى كانت لا تزال واقفة، وجذبتها نحوى وأجلستها على السرير وقمت أنا واقفاً وأنا أقول لها:

- اعذرينى يا (فهيمة) ولكنى سأثقل عليك وأجعلك تنامين مكانى حتى أرجع، وأنت يا أمى ستظلين بجانبها حتى لا يكتشف أحد أمرها .

فقالت (فهيمة) فجأة:

- ولكن يا(زيد) ...

فقاطعتها قائلاً :

- أرجوك يا (فهيمة) لا ترفضي، وسأكون هنا قبل الغروب ولن يلحظ أحد غيابى .. أرجوك ..

فقالت أمى بجزع : .

- كيف يا (زيد)؟ هذا لا يعقل يابنى ..
- أرجوك يا أمى، أنا أعرف أنها فكرة مجنونة ولكن لابد أن أفعلها حتى أثبت براءتى أولاً، رغم أن هذا لا يهمنى أكثر من اكتشاف المجرم الحقيقي.

وبدت أمى صامتة لا تستطيع التحدث، فنظرت ل(فهيمة) وقلت لها :

- هل تساعدينى يا (فهيمة) .

فنظرت لى مستعطفة ثم ربتت على كتفى وقالت :

- اذهب يا (زيد) ..

فقالت أمي وهي تهم بالبكاء :

- أنا لا أصدق ما يحدث هنا ..

فقاطعتها قائلاً وأنا أمسك كتفها :

- أرجوك يا أمي .. ادعي الله لى أن يوفقني، وبإذن الله سيكون كل شيء على ما يرام.

ظلت صامتة تنظر إليّ ثم مسحت عينيها وقالت:

- أذهب يا (زيد) وفقك الله، ولكن انتظر ...

وهبت واقفة حتى تؤمن لي طريق الخروج، وإذا بالباب يُفتح فجأة وتدخل (مريم) فتقف مشدوهة من ما تشاهده، فقد رأتنى أنا وأمى متجهين نحو الباب و (فهيمة) نائمة في سريرى..

فبادرتها قائلاً :

- (مريم) .. هذا ليس وقت استغراب نهائياً ..

بعد لحظات قليلة كنت قد أفهمتها كل شيء، وما انتويت فعله، وخرجت هى بدورها وتوجهت نحو العسكرى الواقف آخر الممر وأخذت تتحدث إليه، وخرجت أنا برأسى ونظرت يميناً فوجدتها تتحدث مع العسكرى وأشارت لى بيدها من خلف ظهرها حتى أخرج بسرعة، فأمسكت بأمي وقبلتها من جبينها وأدرت وجهى ناحية (فهيمة) التى أشارت إليّ بيدها أن أخرج مسرعاً .

وخرجت بسرعة وكانت (مريم) لاتزال تتحدث مع العسكرى حتى تشغله عنى، وتوجهت يساراً فى الجهة الأخرى من الممر وتوجهت للنافذة وخرجت منها بخفة ..

{20}

كان الوقت عصراً حيث قاربت الشمس على الأفول حين وصلت إلى بيت (عمر)، لا أدرى ما الذى دفعنى للذهاب هناك، ولكن كان يراودنى إحساس بأننى لابد أن أجد شيئاً هناك يدلنى على القاتل ..

كان نزُلاً صغيراً، يتكون من طابقين وله سلم رئيسى عريض، حين كنت أعمل مع (عمر) وكنت أقيم فى الطابق الأول، بينما كان يقيم (عمر) وأمه فى الطابق الثانى، كان (عمر) يذهب مبكراً ليفتح البنزينة والمحل، وكنت ألحق به ظهراً، ولكنى كنت أسهر وأغلق المحل ليلاً ..

وقفت على مقربة منه وأنا أسترجع الأحداث التى وقعت هنا من قبل، وحاولت تذكر ملامح من كان يرتدى السترة البنية، ولكنى لم أستطع، فقد كنت وقتها مسرعاً جداً بحيث لم أتبين وجهه.

وبنظرة سريعة حول المكان وجدت أن المنطقة شبه خالية إلا من المزارع ومنزلين كل منهما طابق واحد فى الجهة المقابلة لمنزل (عمر)، وتذكرت أن (عمر) قد أخبرنى أن عَمه يسكن أمامه، فقلت بأنه لابد أن يكون أحد المنزلين المواجهين لبيته.

أخذت أتذكر اسم عمه ولكن لم تسعفنى ذاكرتى.

وتوجهت إلى أحد المنزلين عسى أن أجد لافتة أو أى شيء يدل على صاحبه ..

ووجدت أمام أحدهما طفلاً صغيراً يلعب مع عنزة، فأخذت أراقبه من بعيد، وراحت العنزة الصغيرة تتفلت منه وتهرب فيجرى نحوها ويلحق بها وتعاود هى الكرة مرة أخرى، وفى إحدى المرات خطوت نحوها مسرعاً وأمسكت بها وقرفصت ألاعبها، وجاء الطفل من خلفها مهرولاً حتى وصل إليّ فقال :

- أشكرك يا عم ...

فقلت له مبتسماً :

- هذه العنزة شقية جداً، لابد أن تمسك بها جيداً حتى لا تهرب منك ولا تعود مرة أخرى ..

- لا .. هى معتادة على اللعب هكذا ولكنها ترجع لى مرة أخرى ..

- ما اسمك يا حبيبى ؟

- اسمى (مبروك) ..

- اسمك جميل يا (مبروك) ... (مبروك) ماذا ..؟

- (مبروك) بابا ..

فابتسمت على مضض وقلت له :

- ما اسم بابا ..

فرد عليّ ببلاهة :

- بابا اسمه بابا ...

فاستأت من هذا الطفل الغبى وقلت له :

- هل هو موجود الآن ؟

- إنه بالمنزل ..

- هل تستدعيه لأجلى؟

- سأذهب لأناديه ولكن أمسك بالعنزة جيداً، وحذار أن تهرب منك .

أمسكت بعنزته وابتسمت له فى حين هرول نحو منزله لينادى والده، وأخذت أعتصر عقلى لأتذكر اسم هذا الرجل ..

هَل هو بدوره من داخل المنزل ممسكاً بيد ابنه، ووقفت أنا لألاقيه وأنا لا أدرى ماذا سأقول له أو بماذا سأناديه ...

وتقدم نحوى وهو متوجس فلم يكن يعرفني وبالتأكيد لو عرفني سيخاف أكثر، ووصل إلىّ ومد يده يصافحنى، وفجأة تذكرت (عمر) وهو يقول لى "عمى عاصم"، فقلت له على الفور :

- أهلا يا حاج (عاصم) ..

ابتسم الرجل وهو يقول :

- أهلاً يا ولدى ... هل أعرفك ؟

- لا أظن أنك رأيتنى من قبل .. فقد كنت صديق (عمر) ...

ووجدت كأن الرجل صُدم مما سمع، ولكنه فضل أن يصمت ليستفهم، فاستأنفت قائلاً:

- كنت زميله فى الكلية ولم أره منذ فترة طويلة .. وعرفت بما جرى له وأمه، وإنى شديد الحزن عليه، فقد كان إنسانًا يشهد له كل الناس بالصلاح، ولم يضمر لأحد شراً أبداً.

وظل الرجل صامتاً للحظات وظننت أنه يشك فى أمرى، ولكنه قال فجأة:

- لقد نسيت أن أقول لك تفضل يا ولدى، اعذرنى.. تفضل معى بالداخل ..

ودخل إلى منزله وأنا خلفه، ومليون سؤال كان يجول فى خاطرى، أيمكن أن يكون هو من كان يرتدى السترة البنّية؟ لو كان هو لكان عرفنى من الوهلة الأولى، لأنه بالتأكيد كان يعرفنى وبالتأكيد هو من شهد أنه رآنى أنزل مهرولاً من منزل (عمر)..

وفضلت أن أكمل حديثى معه عسى أن أكتشف شيئاً، وجلست أنا وهو وأعد لى الشاى وجلس أمامى وقال:

- وربى يا ولدى لقد صُدمنا بعدما سمعنا بهذه الحادثة، فمثلما قلت أنت لم يكن (عمر) يضمر لأحد شراً أبداً هو أو أمه، ولا أظن أن أحداً كان يكره (عمر) أو أمه ليقتلهما بهذه الطريقة، لقد كان هو وأمه وأبنى كل من تبقنوا لى من الدنيا بعدما توفيت زوجتى العام الماضى .
- ومن الذى فعل ذلك يا حاج ؟
- شخص ما يدعى (زيد) .. خيب الله رجاءه بفعله الأثيم، وعلى ما سمعت أنه كان يعمل مع (عمر) بالبنزينة والمحل المجاور لها .. أنا لم أره لأنه لم يلبث فترة طويلة هنا.

فقلت باهتمام :

- (زيد)؟ ولمَ تظن أنه من فعل ذلك يا حاج؟

- لا أدرى .. الناس تقول ذلك ..
- وأين هو الآن؟
- لقد هرب ولا يعلم رجال الشرطة مكانه ..

وأمسك الرجل عن الكلام فجأة وظل يتفحصنى ثم قال:

- ولكننى لم أتعرف عليك .. ما اسمك ؟
- أنا ... (كيمو)... اسمى (كيمو) ...
- (كيمو)؟ .. ولكن وجهك مألوف، أمتأكد أننا لم نتقابل سابقاً ..

فابتسمت قائلاً :

- لا أظن يا حاج .. فأنا لست من هنا ..

ووجدت أن الرجل يرتاب فى حالى، فاستأنفت بسرعة:

- ولكنى ذهبت مرات معدودة إلى (عمر) فى البنزينة، لعلنا تقابلنا هناك ذات مرة ..

بينما ظل الرجل صامتاً وهو يهز رأسه ثم قال :

- اشرب الشاى ..
- أشكرك يا حاج .. ولكن لابد أن أذهب الآن، وآسف على خسارتكم، البقاء لله ..

وهممت بالخروج، ولكننى استدرت إليه مرة أخرى واستأنفت كأنما نسيت أن أخبره بشيء جاء على بالى فى تلك اللحظة، فقلت :

- أظن أن النُزل والبنزينة والمحل سيقام عليهم مزاد بعد أسبوع لصالح البنك، أعلمت ذلك؟

ووجـدت كأنمـا قـذفت بطعـم لسـمك عـائم، ولكنـه كـان أسـرع من السمك حيث صاح قائلاً :

- مـاذا قلـت؟ .. بـالطبع لا .. فهـذه الأمـلاك سـتعود إليّ، فأنا المالك لها الآن ..

فنظرت إليه مبتسماً وأنا أهز رأسى قائلاً:

- هذا ما سمعته ..

{21}

انصرفت من منزل (عاصم) عم (عمر) وأنا أحاول جمع الأوراق كلها مع بعضها، فهذا الرجل رآني ولكنه لا يتذكرني جيداً، والدليل على ذلك أنه رأى أن وجهي مألوف بالنسبة له، ولطالما سمعت من (عمر) أن عمه يريد أن يشتري نصيبه في المحل والبنزينة، وأن (عمر) وأمه لم يوافقا على ذلك.

لابد أنه علم بموت (عمر) بأي طريقة كانت، فقرر قتل أمه أيضاً وإلصاق التهمة بي أنا وينحو هو بفعلته وتؤول إليه كل هذه الأملاك.

توجهت نحو المستشفى راكباً الريح أسابق النسيم، ومررت بالعسكري بسرعة وكان يجلس على كرسي وما إن وصلت إلى باب غرفتي حتى طرقت عليه بضع مرات سريعاً وأنا أنظر إلى العسكري الذي وجدته ينظر إليّ ويهم بالنهوض من كرسيه.

وفُتح الباب فدخلته بسرعة وأغلقته خلفي، وكأن بالعسكري قد اختزل هذه المسافة في لحظة وفَتح الباب وهو يقول:

- أنت أيها ال ......

وتوقف عن الكلام في ذهول عندما رآني راقداً في سريري وتجلس بجواري (فهيمة) وأمي، فاستأنف قائلاً :

- ألم يدخل أحد الآن ...

وتصنعت أني كنت نائماً وأيقظني هو بصوته فقالت أمي في ثبات :

- لم يدخل أحد .. ومن المفترض أن تطرق الباب قبل أن تدخل هكذا ...

كتمت (فهيمة) ضحكة كانت على وشك أن تفضح أمرنا، وظل العسكرى صامتاً يحدق فينا ثم قال :

- اعذريني يا سيدتي .. فقد خيل إليّ أنني رأيت أحداً.

ونظر إليّ مرة أخرى وهو غير مصدق وأغلق الباب فى بطء وهو يظن أنه كان يتوهم ما رأى.

وما إن خرج حتى انفجرت ضاحكاً أنا و(فهيمة)، بينما قامت أمى من على الكرسى وجلست بجانبي وقالت:

- أين كنت يا (زيد) .. ولماذا تأخرت هكذا ؟

سأقول لك يا أمى .. ولكن دعيني ألتقط أنفاسى.

وأخذت أقص عليهما ما عرفته وكيف استنتجت من هو القاتل الحقيقى .. وطرق الباب وكانت (هالة) ودخلت على الفور وكان العسكرى معها فقالت له:

- اذهب الآن ...

فنظر بدوره إليّ وهو مازال فى حيرة من أمره وانصرف ..

وتوجهت (هالة) إليّ ولم تعط الفرصة لأحد أن يتحدث معها أو يبادلها السلام، وقالت لى بابتسامة تعلو وجهها:

- أنت بريء يا (زيد) ..

فقلت مندفعاً وكأننى غير مبالٍ:

- لقد عرفت من القاتل يا (هالة) .. ولابد أن تقبضوا عليه ..

فبدى عليها الاستغراب وقالت :

- عرفت من القاتل! كيف هذا ؟

- القاتل هو عم (عمر) ...

وجدت الجميع محدقين بى صامتين، فاستأنفت قائلاً :

- فهـو المسـتفيد الوحيـد مـن مـوت (عمـر) وأمـه حـتى يرثهما، وبالتأكيد هو من أبلغ عنى ..

فقاطعتنى (هالة) قائلة :

- إنه ليس عم (عمر) ..
- كيف هذا ؟ أنا متأكد أنه هو ..
- لا يعقـل أن يكـون بمكـانين فى الوقـت نفسـه، فمـن الصـعب أن يـودي فريضـة الحـج ويـؤجر شخصـاً لقتـل أم (عمـر)، فعلـى الأقـل لم يكـن يعـرف أن (عمـر) قـد قتل...

كـدت أنطـق معقبـاً، ولكـن الكـلام وقـف في حلقـى ولم أسـتطع التحـدث، فقطـع هـذا الصـمت أغنيـة أعتقـد أنى سمعتهـا مـن قبـل، واتجـه الجميـع لمصـدر هـذا الصـوت المفـاجئ وكـان صـوت هـاتف (فهيمـة) الـتى اعتـذرت منـا وأغلقتـه علـى الفـور، ثم قامـت مـن جلستها وقالت:

- أرجـو المعـذرة ... فقـد تـأخرت جـداً علـى أمـى، ويجـب أن أذهب ..

فقلت لها :

- أشكرك يا فهيمة على كل شيء ..
- هذا واجبى يا أستاذ (زيد) ..

ثم نظرت إلى (هالة) وكأنها تستفهم منها :

- ومن القاتل إذن ..؟

فاتجهـت (هالـة) إليهـا بكامـل جسـدها وهـى تستوضـح شخصيتها، فأسرعت أنا بتقديمها إليها قائلاً:

- هذه (فهيمة) جارتنا ..

ونظرت لـ (فهيمة) وأنا أشير لـ (هالة) وقلت :

- الضابط (هالة) ...

وظهـر أن (فهيمـة) لم تكـن تتوقـع أن تكـون (هالـة) ضـابط شرطة، فتلعثمت قليلاً ثم قالت :

- تشـرفت يـا (هالـة) باشـا ...أولـيس هـذا مـايلقبون بـه الضباط ..؟

وتبـين أنهـا تحـاول إضـحاكنا فى وقـت لا سـبيل فيـه للمـزاح، ولم تنتظـر لتسـمع جوابـاً علـى سـؤالها أو رداً علـى تعليقهـا، واستأذنت مسرعة وهى يبدو عليها الإحراج.

فقالت أمى لـ (هالة) :

- كيف توصلتم للقاتل الحقيقى؟

- لم نتوصـل بعـد .. وإنمـا توصـلنا إلى أن (زيـدًا) لـيس لـه علاقـة بمقتـل أم (عمـر) وذلـك للإجـراءات الروتينيـة الـتى لم تظهـر أثـراً واحـداً لبصـماته أو أى شـىء متعلـق بـه بـداخل المنـزل .. كمـا أننـا عثرنـا علـى بعـض الخيـوط مـن نسيج قماشى ونعتقد أنه يخص القاتل الحقيقى.

فقلت أنا معقباً بصيحة :

- نسيج قماشى ؟

- لا يهـم هـذا الآن .. فـنحن نريـدك لاسـتكمال التحقيـق، خصوصـاً بعـد اعـتراف الضـابط (حسـام) بجـرائمهم واستأجارهم لقاتل ....

- ما لون النسيج القماشى الذى وجدتموه ؟

- وماذا يهمك فى ذلك الآن ..؟!

- أرجوك .. ما لون النسيج الذى وجدتموه ؟

- لا أدرى، فهذه العينة أُخذت إلى المعمل ..
- إنما بُنية اللون .. لو صدق ذلك سيكون من رأيته هو القاتل ...

فعقدت (هالة) حاجبيها وقالت :

- سأرى ذلك ..
- هيا نذهب الآن ... هل أستطيع الذهاب معك ؟
- نعم .. هيا بنا ...

وما إن أنهت (هالة) إجراءات خروجي من المستشفى حتى توجهنا صوب المعمل الجنائي، وكانت المفاجأة ...
فقد وجدنا أن العينة التي أُخذت من المنزل والتي تحتوى على نسيج قماشي» كانت فعلاً بُنية اللون.. ولكنها كانت من (ثوب نسائي)..

وهنا وكأن الدنيا كانت تدور بي ... فما اعتمدت عليه ذهب مع الريح، فمن الممكن أن تكون صاحبة هذا الثوب هي نفسها أم (عمر) ..
وقلت لـ (هالة) بيأس :

- ولكني خيل لى أنني رأيت شخصاً يرتدى ملابس بُنية اللون وأنا أهرول نزولاً من بيت (عمر) ولم أجده.
- غريبة هذه القصة .. ولكن ألا تستطيع وصف هذا الشخص ؟
- للأسف لا أتذكر من ملامحه أى شيء .. ولكن كيف قُتلت أم (عمر) ؟
- لقد ضُربت بآلة حادة على رأسها ...

- طبيعـى إذن ألا يكـون قاتـل (عمـر) هـو نفسـه قاتـل أم (عمر)

وأطرقت قليلاً وأنا أفكر ثم قلت لها :

- ولكنهمـا علـى علاقـة ببعضـهما ولهمـا مصـلحة أكيـدة فى موت الأثنين ..

فنظـرت إليّ (هالـة) وبـدت صـامتة تصـغى لمـا أقـول، فاسـتأنفت أنا قائلاً :

- والمصلحة الطبيعية لموت الأثنين هى بالتأكيد الميراث..
- وصـاحب المصـلحة المباشـرة مـن المـيراث هـو عـم (عمـر) الذى ظننته أنت القاتل ..
- بـالطبع ... وإن كـان لـيس القاتـل، فبالتاكيـد لـه علاقـة بالموضوع ...
- أنا لا أفهمك يا (زيد) .

فتوقفت فجأة أفكر ثم قلت لها بسرعة :

- هل توصلتم إلى من استأجروه لقتلى ...
- لم نتوصـل بعنـد .. فالـذى اسـتأجره كـان (منـير) الـذى قُتل..
- إذن إذا عثرنـا علـى قاتـل أم (عمـر) فبالتأكيـد سـنعثر على قاتل (عمر)..
- هل مازلت مقتنعًا أنهما على علاقة ببعضهما؟
- بالتأكيد ...

وأطرقـت لحظـات وأنـا نـاظر إلى السـماء كأنمـا أرجـو الله أن يمنحنى ولو خيطاً واحداً لأصل إلى الحقيقة ...

وسبحان الذى وضع الحل أمام عينى من البداية بينما كنت غافلاً عنه، فتذكرت أننى عندما كنت أنزل السلم مسرعاً من بيت (عمر) ولمحت من كان يرتدى الملابس البُنية كان هناك شيء مألوف .. لقد كان صوتاً أخذ يتردد فى أذنى لفترة طويلة، لقد كان صوت أغنية .. وقد سمعت هذه الأغنية مرة أخرى عندما كنت بالمصحة على مذياع الحاج (نبيل)، والتى يومها أخذت أرددها دون وعى بينما كنت فاقدًا للذاكرة، وقد كانت نفس الأغنية التى سمعتها عندما رن هاتف (فهيمة) !!

هنا وضحت الحقيقة، فلم يكن من شاهدته رجلاً .. لقد كانت سيدة تلبس جلبابًا بُنى اللون .. وقد شاء القدر وقتها أن يرن هاتفها وأسمعه ومن سرعتى لم أتبين ملامحها، وظلت الأغنية وحدها تتردد فى عقلى اللاواعى، فقلت لـ(هالة) بصيحة:

- إنها (فهيمة) .. هى من قتلت أم (عمر)، هيا بسرعة نذهب إليها ..

{22}

أعملت (هالة) اتصالاتها وأتت بقوات الشرطة وذهبنا إلى منزلي حيث كانت أمي، وسألنا عن منزل (فهيمة) وبالتأكيد لم نجدها به فقد كان منزل والدتها وقد علمت أننا اكتشفنا ما فعلت، ووجدنا الثوب البني وعلمنا أنها تقيم بالمنزل الذى يواجه منزل (عمر)، بجوار الحاج (عاصم) عم (عمر) ..

توجهنا للحاج (عاصم) وكشفنا له عن كل شيء، وأخبرنا عن (فهيمة) التى تسكن بجواره وعن زوجها الذى قُتل قبل عام ولم يستدل على قاتله، وأخبرنا أنها كانت ترمى الشباك حوله كى يتزوجها ..

قلت لـ (هالة) بعدما فرغنا :

- أظننا علمنا كل شيء ..
- أجل ... ولكن للأسف فقد هربت (فهيمة) .
- ولكن كما قلت لك .. إن وجدناها سنجد قاتل (عمر) .
- أتقصد أنها على علاقة به ؟
- أنا متأكد من ذلك .. لابد أنه عشيقها ..

فأمسكتنى من ذراعى وقالت :

- هيا الآن يا (زيد) .. فلابد أن تستكمل علاجك .. فأمامنا الكثير بالانتظار .
- ولكننا لم نعثر عليهم بعد ..
- أتريد أن تفعل كل شيء بنفسك .. أترك أمراً لرجال الشرطة وثق بهم ولا تقلق .

- والله يا (هالة) أصبحت لا أثق بأحد .

فقالت مبتسمة :

- ألا تثق بى ؟
- أنا لا أثق بالمرضات ... (فضحكت)

فاستأنفت قائلاً :

- لا أدرى لمَ أُصرّ على أن أناديك (هالة) يا (هبة) ... أجده غريباً ..

فابتسمت وقالت :

- قل لى ما شئت ...

بعد حوالى يومين كان رجال الشرطة قد توصلوا إلى مكان (فهيمة) وبالفعل كان معها قاتل (عمر)، وبمواجهتهما اعترفا بكل شيء، وعرفنا بالتأكيد من قتل زوج (فهيمة) العام الماضى...

كنا وقتها أنا وهالة نجلس فى إحدى الكافيهات وهى تبلغنى بما حدث، فظللت صامتاً لا أتحدث، فاستأنفت قائلة:

- تبدو غير سعيد بمعرفتك لهذا .

كنت أود لو لم آخذ العلاج من عضة الكلب، وأتحول إلى كلب كى أشم رائحتهم وآتى بهم وأمزقهم بأسنانى، ثم إن القبض عليهم لن يرجع ما فُقد منا ..

فأطرقت (هالة) وقالت :

- ولكنى أعتقد أنهم ارتاحوا الآن يا (زيد).
- أتذكر كلام أمى الآن عندما قالت لى أن "لايوجد ما يحدث دونما سبب"، فقد أوقعنى الله بمثل هذه

المشكلات حتى يتسنّى لنا كشف الكثير من الجرائم والمجرمين ..الحمد لله.

****

كانت المحاكمة فى قضية بنات الجيش بعد أيام قليلة، وقد أذهلنى كم الفتيات اللاتي شهدن على الضباط الذين كانوا يجبرونهم على فعل الرذيلة معهن، وأذهلنى أكثر دخول (أدهم) قاعة المحكمة وشهادته بالحق على زملائه، والذى قال فيهم بصوت جهورى :

- إنهم لا يستحقون شرف ارتداء الملابس العسكرية..

شهد يومها بكل شيء وشهد معه الكثير من الضباط المحترمين الذين ضاقوا ذرعاً بتصرفات (زيدان) وأمثاله من الضباط المستغلين لنفوذهم ..

وأدين الضباط بهذه الجرائم، وشهدت أنا بكل ما حدث لى، وسمع القاضى التسجيل الصوتى لصوت (حياة) رحمها الله ..

وفى النهاية صدر حكم الإعدام على أربعة منهم، والمؤبد على آخرين بتهمتى الشروع فى هتك عرض الفتيات والتحرش بهن...

مساءاً من ذلك اليوم كنت أجلس مع (هالة) فى أحد الأماكن العامة وظللت شارداً فقالت (هالة):

- أين ذهبت؟

- أبداً .. كنت أسترجع كل ما حدث، وكأن كل ذلك كان بالأمس فقط .

- كفاك يا زيد .. ألم تتعب من التفكير، اترك لى نفسك الآن ...

فابتسمت قائلاً :

- لقد تذكرت (حياة) ..
- أمازلت تحبها ؟
- طبعاً .. ولا أستطيع نسيانها إطلاقاً .. لقد كانت مثال النقاء والبراءة ...

دمعت عيناى وقتها ووجدت (هالة) تستمع لكلماتى وهى تنظر أسفل وتتذرع بأخذ الكوب الذى أمامها وأخذت ترتشف منه ببطء، فأمسكت بيدها واستأنفت :

- ولكن عوضنى الله عنها بأجمل وأشجع وأرجل بنت فى الدنيا...

فعقدت حاجبيها وابتسمت قائلة :

- أرجل بنت !

ثم أمسكت برهة وقالت :

- مسكينة (حياة) رحمها الله هى وكل من مات غدراً.

بعد عدة شهور كان يوم زفافنا أنا و (هالة)، وقد حضر الكثير من الناس ....

وأقسم أننى شاهدت بينهم (حياة) و (عمر) و (أمه)..

تمت

كَلِمة المؤلف

كُتبت رواية (آمنيزيا) مابين عامى 2001 و 2007 ، أى فى حوالى سبع سنوات، وتم تعديلها وإضافة فصول إليها فى عام 2015

(آمنيزيا) كانت حلمًا، وكون الرواية بين يديكم الآن فهذا يعتبر تحقيقًا لحلم عشت لأجله فترة طويلة .
اسم الرواية الأول كان (الطريق)، ولكن تم تعديله إلى (آمنيزيا)

أحب أن أوجه شكري لأصدقائي وإخوتي الأعزاء لدعمهم الدائم وتشجيعهم لي " الديب – زويل- بيبو - غادة – إيمان – هند – مروة – هدير – آيه " ولأبي "علي عوض"

فى النهاية أرجو أن تنال الرواية إعجابكم، وأرجو ألا تحرموني من معرفة ذلك، فيمكنكم أن تراسلونى على صفحة الرواية أو الصفحة الشخصية .
رابط صفحة الرواية :
www.facebook.com/amnesiadafinshy
رابط الصفحة الشخصية :
www.facebook.com/dafinshy

محمد دافنشى



لقد صدق الناس حين رأونى أركض نحو الطريق ،
فلم أتحمل هذا الموقف العصيب
وأخذت أصرخ وأجرى بلا هدف ،
فللمرة الثانية أرى امامى شخصاً احبه مقتولاً...

أخذت أهرول وما كدت أصل للباب حتى وجدت صوتاً
يأتى من خلفى ينادى علّى
فتسمرت مكانى ولم أنظر إلى مصدر الصوت
فعاد الصوت مرة أخرى ينادينى بوهن
فإستدرت ببطىء حتى أتبين من صاحب هذا الصوت
وما أن رأيت وجهه حتى شهقت وأرتديت للخلف بضع خطوات
وتقدم صاحب الصوت نحوى بسرعة عجيبة
وأمسك بى وأخذ يتأمل وجهى ...



